

المدينة والعمران في بلاد المغرب القديم

"مدينة تيمقاد الرومانية نموذجا"

أ. عبد القادر عوادي عزام*

الملخص

شهدت بلاد المغرب منذ أقدم العصور التاريخية التواجد الإنساني بها، وتعد القارة الإفريقية بصفة عامة مهد الحضارة الإنسانية، ولذلك تعتبر بلاد المغرب من المراكز الهامة عبر التاريخ الإنساني التي استوطن بها الإنسان القديم، وكان هذا الاستقرار متنوعا ومختلفا، وهكذا توالى الحضارات الإنسانية في هاته المناطق، وتطور الإنسان القديم مع تطور التاريخ فمن ساكن للكهوف والمغارات إلى إنسان يشيد المساكن والمعابد والمقابر، ومع كل حضارة جديدة تظهر معالم في شتى الفنون وخاصة في المجال العمراني.

ولقد شهدت بلاد المغرب على مر تاريخها دخول عدة شعوب والاستيطان على أرضها فكان الفينيقيون والرومانيون والبيزنطيون، وكان لكل شعب من هاته الشعوب أثر في بلاد المغرب، وسوف نتحدث في هاته المقالة عن الحضارة الرومانية، الذين عرفوا بحبهم الكبير للجمال والفن وكان من أبرز الأشياء التي اهتموا بها هي العمران والبنائيات، وشهدت منطقة المغرب القديم عدة مستوطنات رومانية معروفة واحتوت على كل مرافق المدينة الرومانية، وسنخصص الحديث في هاته الورقة البحثية عن مدينة تيمقاد الرومانية التي تعد أحد أهم المدن الرومانية بالشمال الإفريقي، وذلك نظرا لمكونات هاته المدينة الحضارية.

Résumé

Le Magreb a connu la présence de l'homme depuis les plus anciens temps historiques du pays et on considère le continent africain en général, est le berceau de la civilisation humaine Par conséquent le Maghreb est considéré comme l'un des centres les plus importants à travers l'histoire humaine, qui a été occupé par l'homme antique

* - طالب دراسات عليا في التاريخ بالجامعة الإفريقية - أدرار / الجزائر.

Cette occupation a été variée et différente. Ainsi les civilisations se succèdent dans ces régions

Et l'évolution de l'homme antique à travers l'histoire, il a habité les grottes et de cavernes jusqu'à la construction des logements, des temples et des cimetières

Avec chaque nouvelle civilisation apparaissent des différents arts, en particulier dans le domaine urbain

le Maghreb a vécu à travers son histoire le passage et l'occupation de plusieurs peuples : les phéniciens , les Romains, les Byzantins et chacun d'eux a laissé ses emprunts dans le Maghreb

Nous allons parler dans cet article de la civilisation Romaine

Où les romains ont été connus par leur amour à la beauté et à l'art et le plus important la construction des bâtiments

Le Maghreb ancien a connu plusieurs colonies romaines qui contenaient toutes les installations des villes romaines

Nous allons parler dans ce billet de recherche de la ville romaine "Timgad" considérée l'une des plus importantes villes romaines du nord africain.

Compte tenu de ces éléments de ville civilisée .

المقدمة

إن العمران في بلاد المغرب القديم هو من الجوانب الحضارية المهمة التي لاقت الاهتمام من طرف سكان تلك المرحلة القديمة من التاريخ، ولكون بلاد المغرب شهد عدة شعوب على أرضه فقد كان غني بالمدن والمعمار المختلف على حسب ونمط كل شعب من الشعوب ولكن من أبرز الحضارات التي تركت بصمة في مجال العمران والبناء نجد الاحتلال الروماني لبلاد المغرب القديم وتلك هي كثيرة المدن التي شيدها الرومان في شمال إفريقيا لكن ليست كثيرة التي حافظت على عمرانها القديم إلى وقتنا الحالي ومن أبرزها في وطننا هي مدينة تيمقاد الأثرية التي مازالت تحافظ على نسقها المعماري القديم من العهد الروماني ولا زالت شاهدة على حضارة مزدهرة وقوية وكانت في يوم ما هنا في الجزائر. تيمقاد التي لا زالت صخورها وأطلالها شاهدة على سحر وإبداع من سكنوها وشييدها لتكون حاضرة رومانية حقة لما احتوته من مرافق حياتية عدة جعلتها أبرز المدن الرومانية في شمال إفريقيا ومن أهم إشكاليات الموضوع هي: كيف كانت المدن الفينيقية والنوميديّة؟ وما أبرز خصائصها؟ وكيف كانت العمارة الرومانية ببلاد المغرب القديم؟ وما هي أهم المرافق التي تحتوي عليها مدينة تيمقاد؟.

أولا- العمران في العهد الفينيقي و النوميدي

نحن نعلم تمام العلم أنّ الأمة الفينيقية هي أمة تجارية بحرية، فلم يحملها على دخول بلاد المغرب الطمع أو في انتزاعه من أهله والاستبداد عليهم في وطنهم، ولذلك لم تملك منه غير السواحل اللازمة لحياة بحريتها، وأسست مدنا لترويج بضائعها بين الأهالي، وأقامت حيناً من الدهر جارة للبربر تستخدمهم في مدّهم بأجور يرضونها وتستأنف أمراءهم بالأموال خوفاً من غاراتهم.

ولما تأسست قرطاجة اقتطع الفينيقيون من داخل الوطن البربري قطعة استوطنوها ودخل أهلها تحت طاعتهم، ومن ضمن المدن الفينيقية في الجزائر، بونة(عناية)، روسيكادا(سكيدة)، شولو(القل)، صلداي(بجاية)، اكسيوم(الجزائر)، يول(شرشال). (مبارك. دس: 133-134)

ولم يتجاوز الفينيقيون السواحل إلى داخل الجزائر إلا في الجهة الشرقية حيث كانت نوميديا الشرقية تحت حمايتهم ومن تلك المدن: تغاست(سوق اهراس)، تيفست (تبسة) التي اتخذها الفينيقيون مركزاً هاماً لرحلاتهم ومبادلاتهم التجارية. (عبد السلام. 1996: 9)

وكما سبق الذكر أن الفينيقيين أمة كثيرة الأسفار في البر والبحر لكسب الثروة بالاتجار، فلم تكن لها حضارة خاصة بها، ولكن يرجع إليها الفضل في نقل حضارات الأمم بعضها إلى بعض بما تروجه بينها من البضائع المختلفة، وأنّ آثارهم تدل على تقليدهم للمصريين في بناء البيوت وحفر القبور.

وإنّ قبور الفينيقيين وجدت بالجبال مثل قبور قدماء المصريين، وبيوتهم مبنية بالحجارة، ولها أسوار تتصل بالسقف من غير قوس وخطوط أساساتها مستقيمة. (مبارك. دس: 144)

ولقد كانت أهم مدنها على الإطلاق - أي الفينيقيين - هي مدينة قرطاجة التي تأسست سنة 814 ق.م، وكانت قرية صغيرة ثم أخذت تنمو وتكبر ويتسع عمرانها، ويرتفع عدد سكانها ويعلموا شأنها وصيتها حتى أصبحت فيما بعد مركز الحضارة، وملتقى التجارة العالمية، وعاصمة الشمال الإفريقي كله، وخلفت مملكة صور في مستعمراتها

ومراكزها التجارية وفي السيطرة البحرية والنشاط التجاري، ومدت نفوذها على المناطق المجاورة شيئاً فشيئاً، ولقد استفاد السكان المحليين من هذه المدينة وورثوا عنها شيئين هامين هما: حياة المدن بما فيها من ضوضاء وترف ونعيم، والخضوع لحكومة ذات نظم وقوانين إدارية اكتسبت صفة الدولية العالمية بمرور الزمن، وكانوا قبل تأسيس قرطاجة يعيشون حياة البداوة في مجموعات خاصة موزعة هنا وهناك وفق النظام القبلي الضيق. (يحي. 2009: 29)

ومن المدن الفينيقية أيضاً نجد:

مدينة قسنطينة (cirta): يعتقد أنّ اسم سيرتا سامي الأصل، وأنه تحريف للاسم الحقيقي الذي هو كرتن (krtn) ومعناه المدينة أو القلعة، ولقد أُشير إلى اسم سيرتا أول مرة من قبل المؤرخين الإغريق والرومان في أحداث نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، التي جرت بين سيفاقس من جهة وجايا وابنه ماسينيسا بعد أن انحاز الرومان في حروبهم ضد التحالف القرطاجي النوميدي.

والملاحظة التي يمكن استخلاصها من خلال المصادر المادية المتوفرة لدى الباحثين تشير إلى أنّ تاريخ مدينة سيرتا لا يتجاوز القرن الثالث قبل الميلاد، ولا تستبعد أن تكون في بداية نشأتها عبارة عن مركز تجاري ليبي-فينيقي أقيم في الداخل، شأنه في ذلك شأن المراكز الليبية-الفينيقية الأخرى التي أقيمت على سواحل بلاد المغرب القديم. (محمد الصغير. 2003 : 221 - 222)

ومن بين المدن أيضاً نجد :

تيبازة: يعتقد بعض المؤرخين أنّ اسم تيبازة سامي الأصل ولم يطرأ عليه أي تغيير، وأنّ التجار الفينيقيين نزلوا بشواطئها بغرض التجارة وذلك يعود إلى سهولة شواطئها حيث يتوفر به الرمل مع بعض الميلان الذي يسهل عملية جر سفنهم، ويذكر المؤرخ سينتاس من أنّ تيبازة دخلت تاريخ المغرب منذ نهاية القرن 6 ق.م.

ولقد كان ذلك على يد التجار الفينيقيين ولقد استنتج سينتاس من أنّ مسافة أي محطة بحرية على التي تليها لا تتجاوز إبحار يوم كامل ويقدر ذلك ما بين (30-50 كم). (محمد الصغير. 2003: 181-182)

ولقد استفاد البربر من الفينيقيين فوائد كثيرة وجلية بحيث يصدق عليهم أنهم تلاميذهم في العمران والحضارة وهكذا تمازج البربر مع الفينيقيين في العديد من الأمور الحضارية الأخرى ومن أهمها الزراعة والصناعة.(مبارك. دس: 163)

وهكذا بعد أن تعرفنا عن المدن العمرانية في بلاد المغرب القديم على العهد الفينيقي والتي تميزت على أنها كانت بنايات على أساس تجاري ولم تكن ذو بناء يهتم بالنسق العمراني والفني والجمال، والآن نتعرف على البناء المحلي البربري والذي يتميز بكونه بناء جنازي وهو ما ميز العمران النوميدي في بلاد المغرب القديم.

والملاحظ أن القرون التي سبقت سقوط قرطاجة سنة 146 ق.م، عرفت تأثر الأهالي بالحضارة الفينيقية والإغريقية اللتان كانتا تتنافسان على النفوذ في الحوض الغربي للمتوسط ومن بين ما نتج عن هذا التأثير اهتمام لدى البربر في مجال البناء الجنازي تجسد في استيراد مظاهر الفنون المعمارية كتقنيات البناء والزخرفة، وكذا مختلف الأشكال الهندسية التي لاقت رواجاً كبيراً.

ومن الشواهد المعمارية للعمارة الجنازية النوميديّة والتي لا تزال موجودة لحد الآن، ويمكن لنا أن نقسم الأضرحة النوميديّة إلى نوعين وهما الأضرحة الملكية المستديرة والأضرحة البرجية.

1- الأضرحة الملكية المستديرة والهرمية (البازينية)

ومن أهم هذه الأضرحة نجد ضريح المدغاسن الذي يتواجد فوق ربوة قليلة الارتفاع من الطريق الرابط بين قسنطينة وباتنة وهو يقع على بعد 30 كم من الناحية الشمالية لمدينة باتنة.

وبالنسبة لتسمية هذا الضريح فيرى البعض أن امدغاسن كلمة مركبة من شقين الأول مدغ والشق الثاني سن ومعناه باللغة العربية مدغ الثاني وهو صاحب القبر، وإذا افترضنا هذا القول بأنّ الضريح يرجع للملك أو قائد باسم مدغ الثاني. فالأفضل أن يقال بالبربرية مدغ ويسن سن، بالإضافة إلى أنّه من الناحية التاريخية فإنّه لا وجود لشخصية في كل شمال إفريقيا تحمل اسم مد الثاني ولا حتى مدغ الأول أما الرحالة بريس bruce فينسب ضريح المدغاسن إلى سيفاكس أو سيفاقص، أما العقيد الفرنسي carette فيقول بأنّ

ضريح المدغاسن إنما هو ضريح مادغيس الذي ذكره ابن خلدون كجد للبتر، وأن الأوراس من أهم المناطق التي انتشر فيها أحد فروع مادغيس.

لكن لا يوجد ما يؤكد هذه الفرضية خاصة مع غياب النصوص والكتابات التاريخية القديمة التي تتكلم عن هذا المعلم. (أحمد. 2001: 28)

أما غابريال كامبس g. camps فيقول بأنه ضريح لإحدى ملوك النوميدي بدون ريب الذي يتواجد في قلب نوميديا والذي يجلب انتباهنا من بعيد فهذا الضريح الدائري الشكل له قطر مقاساته 59 م مكون شكل يشبه الدف أسطواني متوج أو مكمل بدكات أو مقاعد وهي في مجموعها تكون شكلا مخروطيا والارتفاع الإجمالي للمبنى يبلغ 19 م.

من خلال الأبحاث والدراسات التي أجريت على ضريح المدغاسن اعتبر هذا الضريح أنه منجز في نهاية القرن 4 أو بداية القرن 3 قبل الميلاد. (عبد الرحمان. 1992: 22-23)

2- الأضرحة البرجية

وهي الأكثر عددا وتكون على شكل صومعة ذات أصول شرقية قديمة تتشكل من عدة طوابق، توضع على مصطبة سفلى وتنتهي بهرم صغير وهي قسمين:

- ذات تصميم مربع: يبدو أن هذا النوع كان شائع الاستعمال عند القرطاجيين مثل أضرحة الخروب (قسنطينة) والجوف ومكثرت (تونس). (حنان. 2009: 9-10)
- ذات مخطط سداسي الزوايا: مع جوانب تتعاقب في الانحناء والاستقامة مثل سيغا (غرب الجزائر)، أضرحة مونسثير- بورنو (تونس)، فريجي، صبراته (ليبيا)، ومن أهمها صومعة الخروب بقسنطينة الذي يرتفع فوق هضبة. ويقع ضريح الصومعة بأعالي الخروب وهي التسمية التي أعطيت له منذ الفتوحات الإسلامية العربية لشمال إفريقيا، وقد عرفت المدينة التي شيدت بالقرب منه باسم الخروب مفردها (خربه) وجمعها (خرب)، وذلك نسبة إلى بناء الصومعة الذي لحقه التهديم.

يقع الضريح الملكي على بعد 14 كم من عاصمة النوميديين سيرتا على هضبة فوق أرضية مدينة الخروب، وقد بدأت الدراسات التي تناولت هذا الضريح من قبل الفرنسيين "تومبل" (Temple) و "قابل" (Fable) سنة 1838م في جولتهما السياحية التي شملت الفضاء القسنطيني. كذلك أشار إليه فيما بعد الباحث "بيربروجير" (Berbrugger) وذلك

سنة 1843م. وتلاحقت الدراسات والأبحاث الأثرية على ضريح صومعة الخروب بعد ذلك من قبل كل من "رافوازي" (ravoisier) والمهندس "دولامار" (Delamar) هذا الأخير الذي أبرز في أحد ألواح الصومعة كمعلم أثري قديم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ ضريح الصومعة كان قد صنف على أنه فريد من نوعه من بين المعالم الأثرية في بلاد المغرب القديم، ذلك لأن غرفته الجنائزية قد احتوت على أثاث تمثل في لقي أثرية تضم سيفاً من الحديد ودرع مستطيل الشكل صنع من الحديد وخوذة مخروطية صنعت من الحديد هي كذلك ولقد كانوا جميعاً في حالة مؤكسدة. (محمد الصغير. 2008: 100-101)

وبالنسبة للشكل الهندسي للصومعة، فالضريح بني بالحجارة الكبيرة المنحوتة وضعت من دون ملاط وتغطي جدرانها مواد مشكلة من أحجار قليلة التربع يعلوها ثلاثة مدرجات فوقها أقيمت دكة أخرى مربعة، ارتفاعها 1.70م تتكون من أربعة مراميل الأولى والثالثة ملساء بينما زينت الثانية والرابعة بنتوءات تنتهي بطنف ذو تجويف مصري.

والمدفن الأرضي يدل موقعه على أنه بني قبل بناء الطوابق العلوية، فقد هيا أسفل أساس المعلم في محوره المنصف طوله 2م وارتفاعه 0.99م بني بالحجر المنحوت. وشكله مستوحى من الفن الإغريقي الصقلي والبعض يعتبرها مزيج من العناصر الهندسية والزخرفة الفينيقية الإغريقية التي لم تكن شائعة الاستعمال في بلاد المغرب ويتجلى التأثير الهليني للصومعة في أعمدة وتيجان دورية الزخارف الناتئة التي تزين القاعدة السفلى وإفريز الطابق العلوي، أما التأثير الفينيقي فيتجلى في جبهات البناء والتجويف أو الطنف المصري الشائع عند القرطاجيين. (حنان. 2009. 10)

وإذا ابتعدنا عن الجانب الجنائزي وذهبنا إلى ذكر بعض المدن التي كانت عامرة وأهلة بالسكان النوميدي وكيف كانت هذه المدن وأهمها هي:

مدينة سيرتا: والتي ذكرناها آنفا نظراً لبنائها على العهد الفينيقي وبالنسبة لفترة النوميدي فلقد كانت عاصمة نرفاس وأكثر الملوك من بعده، وكما ذكرنا فلقد تأسست على العهد الفينيقي، وهي واقعة على جبل حجري مرتفع يحيط في واد مساعاً من كل جهاته، ولقد

وصفها سترابون المؤرخ الروماني بأنها قلعة ممتنعة على من رامها، وذكر المؤرخ أبيان أن الملك مسيبسا حصنها تحصينا لا يمكن لأحد أن يفتحها عنوة، وقال البكري ليس يعرف أكثر منها، ولقد كانت هذه المدينة على عهد ملوك البربر الأوائل في تقدم ورقي من حيث التجارة والبناءات الأنيقة والمعارف، فكثر روادها واتسع عمرانها، ثم نقصت من قيمتها وعمارتها كثرة الفتن على عهد هيمصال الثاني.

مدينة يول: وهذه المدينة من المراسي الفينيقية، أسسها الفينيقيون ثم دخلت في أيدي البربر وأول من اتخذها عاصمة من ملوكهم هو بوكوس الثاني، وعلى عهد يوبا الثاني بلغت مبلغا عظيما من العمران والحضارة، بني بها المباني الجميلة والقصور الأنيقة وأثارها تدل على عظمتها، وعلى أن اليد التي شاد بها يوبا هذه المدينة يد إغريقية إفريقية وليست رومانية، ولغرام يوبا بكافله أغسطس قيصر نسب هذه المدينة إليه تخليدا لذكراه، فسمّاها قيصرية، وتعرف هذه المدينة اليوم باسم شرشال. (مبارك. دس: 234 - 237)

وما يميز المدن النوميدية أنها اتخذت على المدن الفينيقية وكانت متممة لها ومكملة لها وسنجد الرومان كذلك يتخذون من هذه المدن مراكز عمرانية هامة وذلك يعود إلى الموقع الاستراتيجي الذي تتميز به هذه المدن.

ثانيا- العمارة والمدينة الرومانية ببلاد المغرب القديم

بعد أن تعرفنا عن العمران الفينيقي والنوميدي وأهم مدنها، نذكر الآن العمران الروماني بالشمال الإفريقي وأهم مميزاته وأهم المدن الرومانية بالمغرب القديم.

و أنّ العمران الروماني مختلف عن سابقيهما وهو عمران ذو فن جمالي متميز وشيدوا المدن الجميلة والتي مازالت لحد الآن شاهدة على حضارتهم في مجال العمران والبناء.

مفهوم العمارة الرومانية

هي العمل البنائي الذي أنجز وتم اعتباره واقعا تاريخيا حدث في الزمان والمكان، وهو تعبير لنشاط مجتمع، تحيز في دور معين من أدوار التاريخ الروماني، وهو عمل ضخم لم يفقد شيئا من قيمته بزوال الإمبراطورية الرومانية، فبإمكان هذه الآثار الباقية معروضة

في المتاحف أو منتسبة تنطق وتحدث في هذه المشاهد التاريخية القديمة يستطيع المعاصرون اليوم بواسطتها أن يتصلوا بهذا التاريخ.

ومن أهم مميزات العمارة الرومانية مايلي :

- أنها عكس العمارة اليونانية التي في جوهرها تقوم على فكرة الخط المستقيم، وإن أدخل عليها التعديل، فإن العمارة الرومانية قامت أساسا على الخط المنحني، فنجدها تحتوي عقودا وأقواسا وقبابا، كما طغى الشكل المستطيل على البناءات الرومانية.
- جمعت العمارة الرومانية بين الطرز المعمارية المختلفة، فاستعملوا الطراز الدوري، الأيوني، الكورنثي. فنجد المبنى مزيجا من اثنين أو أكثر على صورتها الأصلية أو تدخل عليها تعديلات، ومثال ذلك استعمال الرومان للأعمدة المنحوتة من قطعة حجرية واحدة وتشكيل تاج للعمود يجمع أكثر من طراز.
- المباني الرومانية ثرية بتمائيل النبلاء، وزعت على الساحات العمومية والأبنية في المدينة، فقد كانت التماثيل توضع في المقاصف والحدائق وتزين المنازل في المدن الصغيرة والكبيرة.
- تميز المهندس الروماني على غرار المهندسين الآخرين أنه جعل من البناءات انجازات ضخمة، تظهر كثمرة لتحكمه في الطبيعة وسيطرته عليها. (حنان.

(2009: 12)

هذا بالنسبة لأهم ما يميز العمارة الرومانية، ومن أهم الوسائل المستخدمة في البناء لدى الرومان نجد الخشب والحجر والرخام والأجر، وكان الطوب الأجر هو المادة الأكثر شيوعا في بناء الجدران، صنعه الرومان من خليط الرمل والجير وتراب الرخام والماء، بحيث يوضع في قوالب تجفف وعندها تصبح صلبة.

ولقد تأثرت العمارة الرومانية بما سبقها من الحضارات، فقد تأثرت بالحضارة الإغريقية واتفقت معها في العديد من العناصر، ولكن الرومان طبعوها بطابع خاص وقد ظهر هذا في نماذج للمعابد المختلفة التي تطورت في عصر التوسع الروماني، ويمكن القول أنّ روما اقتبست فنيا وفكريا من اليونان، كما أخذ الرومان على الإغريق استخداماتهم للنحت على الرخام الذي استخدموه على نطاق واسع.

إنّ استخدام الرومان لبعض الوسائل والمواد المحددة في عمرانهم كالطوب والآجر ربما لتوفرها بكثرة خاصة في منطقة شمال إفريقيا ومثانتها وهذا ما تشهد عليه أثارهم إلى اليوم، ذلك فضلا عن تميز الرومان بتقنيات خاصة لديهم تدل على أنها عمارة رومانية من خلال شكلها الهندسي وطريقة بنائها.

• المدن الرومانية ببلاد المغرب القديم

لقد ازدهرت الحياة العمرانية في العهد الروماني وظهرت العديد من المدن في بلاد المغرب القديم، وانتشرت هذه المدن سواء منها الساحلية أو المدن الداخلية ولقد كانت هذه المدن تشيد ليس الغرض منها هو تعمير بلاد المغرب وإنما خدمة لمصالح روما ونجد الكثير من المدن كانت للجنود المسرحين من الجندية، ومدن أخرى نجدها في إطار رومنة بلاد المغرب واحتواء لسكانه، ولقد بنيت العديد من المدن الرومانية خاصة منها المدن الساحلية على أنقاض مدن فينيقية سبقتها نظرا للتمركز الفينيقي على سواحل بلاد المغرب القديم لعامل التجارة التي كان يحترفها الفينيقيين.

ولقد كان للفلاحة الدور الكبير في تطوير الجانب العمراني لبلاد المغرب فعند استقرارهم بنو المنازل فأصبحوا أهل حضر وقرار فقلدوا الرومان في حياتهم، وقلدوهم في العديد من النواحي في جانب بناء المدن ومرافق البيت.

وتتقسم المدينة الرومانية إلى ثلاثة أشكال وهي:

- المدن البحرية(الساحلية): إنّ المدن البحرية أنشأت على سابقتها المدن الفينيقية، ولكن تصور هذه المدن يصعب في الغالب بسبب ما لحقها من التغير سواء من جراء انتقال مجرى الأودية أو رسوب كميات كبيرة من الغرين أدخلت تغييرا كبيرا على رسم الساحل وشكله، مثلما حصل لخليج قرطاج أو اوتيكة الذي ردم واد مجردة جانبا وافرا منه، وأنّ اوتيكة التي كانت على الساحل أصبحت الآن بعيدة على البحر، ويعود أيضا إلى البناءات الجديدة التي أزلت تماما كل الآثار القديمة. (أحمد. 1959: 341-342)
- ومن هذه المدن الساحلية نجد: مدينة جيجل (igigili)، و بجاية (soldae)، وتيبازة (tipaza)، وتيبازة تحتفظ لحد الآن ببقايا وأثار أهمها ساحة عمومية وقاعة عدالة ومسرح ومبان مسيحية، وأهمها مدينة شرشال حيث نجدها مملوءة بالآثار. (شارل. 1969: 237)

- المدن الفلاحية: وهذه المدن أغلبها كانت قرى صغيرة في بداية نشأتها لكنها كبرت وتوسعت بعد ذلك ونذكر من هذه المدن دقة.
- المدن العسكرية: إنّ المدن العسكرية هي التي تنتشر بكثرة في بلاد المغرب القديم، وذلك يعود إلى طبيعة التواجد الروماني، ومن هذه المدن نجد: جميلة(cuicul)، لمبار.

هذا بشكل عام عن المدينة الرومانية في بلاد المغرب القديم وأما عن خصائص ومميزات المدينة الرومانية ببلاد المغرب القديم، فهو ما سوف نتعرف عليه في العنصر الموالي.

ثالثا: مدينة تيمقاد على العهد الروماني وخصائصها العمرانية

أولا : لمحة جغرافية وتاريخية عن مدينة تيمقاد

1- الموقع والتأسيس

أ- الموقع

تقع تيمقاد شمال سلسلة الأطلس الصحراوي، وبالتحديد على السفح الشمالي لجبل الأوراس، الذي يزداد ارتفاعه على 2328م، في قمة جبل شلية وبالقرب منه نشأت سلسلة جبلية حديثة أشهرها جبل بوعريف الذي يصل ارتفاعه في رأس فورار، ومابين الأوراس وبوعريف سهل ضيق لا يتجاوز عرضه 20 كلم وعلى حافة هذا السهل شيدت مدينة تيمقاد، وهي تبعد عن مدينة باتنة 36 كلم.

ب- تأسيس وتصميم مدينة تيمقاد

1- تأسيس المدينة

وقبل الحديث عن تأسيس المدينة يمكن أن نعطي لمحة عن اسم تيمقاد وسبب تسميتها بهذا الاسم.

لقد أعطيت التسمية الأولية للمدينة وهي سبلنديسينا سيفيتاس (SPLENDISSINA CIVITAS) (جمعية المعالم الأثرية. 2001: 8)، ليتحول فيما بعد ليصبح اسمها أولبا(ULPA) (حنان. 2009: 37)، ويعتقد بعض المؤرخين أن الإمبراطور الروماني تراجان أعطاه هذا الاسم نسبة إلى أخته مارسيانا تراجانا تاموقاديس (TRAJANA MARCIANA THAMUGDH COLONIA) (دليل تيمقاد. دس: دص)، واسم تاموقادي عند البربر يعني مصدر الرخاء أو أم السعادة، وتاموقادي هو الاسم القديم للمدينة وسماها

العرب تيمقاد(جمعية المعالم الأثرية. 2001: 8)، ولقد اختلفت المراجع في ذكر اسم تيمقاد فمنهم من يقول: تمجاد، تيمقاد، تاموقادي، وهذه الاختلافات تعود إلى الترجمة من اللغة اللاتينية إلى اللغة العربية.

وأما عن تأسيس المدينة فلقد تأسست تيمقاد في عام 100م، بأمر من الإمبراطور تراجان (98م-117م)، ولقد أقامتها الفرقة الرومانية الثالثة (الاوغسطية) بقيادة لوكيوس ماناروس غالبيوس (LUCIUS MANARUS GALUS) الذي أقام أول الأمر في لامبيز منذ سنة عام (81م) (Albert. 1894: 30)، ولقد كانت تمقاد في أول الأمر هي عبارة عن مدينة لقدامى المحاربين الرومان وللجند المسرحين من الجيش الروماني.

ب- تصميم المدينة

لقد تم تخطيط مدينة تيمقاد في الأصل كما أشرنا كمعسكر للجند المسرحين من الفرقة الثالثة الرومانية، وكانت المدينة محاطة بسور على شكل مربع يبلغ طوله حوالي 355 متر في كل جانب من الجوانب الأربعة.(عزت زكي. 2005: 355)

ومن خلال طريقة هندسة المدينة فنلاحظ أنّ نفس الطقوس التي استخدمتها روما في تشييد مدنها طبقتها على مدن مستعمراتها، وهو حال تيمقاد، فعند تأسيس أي مدينة رومانية يقوم المهندس بتطبيق نظرية في التخطيط العمراني متأثرة بالأساليب الإغريقية، فخلال القرن الخامس قبل الميلاد قام فيلسوف يوناني وهو (هيبو داموس دوميلي) بنشر فكرة الرسم والتخطيط المنتظم، ولقد كان المهندس يقوم بجملة من الطقوس لمباركة الآلهة وبعدها يحفر حفرة وتسمى (موندوس) ومن خلال هذه الحفرة وبواسطة عصا يقوم بتحديد الجهات الأربع الأصلية وتقسم بذلك إلى أربعة مناطق عن طريق تقاطع خط مزدوج شمالي جنوبي ويسمى كارديو ماكسيموس (CARDO MAXIMUS)، وشرقي غربي ويسمى ديكامونوس ماكسيموس (DUCUMANUS MAXIMUS)، ولقد رصع هذان الشارعان ببلاطات من الحجر الجيري في حين رصفت باقي الشوارع الموازية بالحجر الرملي. (عزت زكي. 2005: 355)

و من خلال الشكل العام للمدينة وعن طريق تقاطعات الشوارع المتوازية فإنّ المدينة تقارب في تصميمها شكل لوحة الشطرنج. ونظرا لوضع المدينة المتميز فقد رأى المخططون أن تخدم مبانيها الوضع السياسي لها، فعلى سبيل المثال نجد المسرح الذي لم

يبدأ في بناءه حتى عام 160م، وكذلك معبد الكابيتول الذي يقع خارج أسوار المدينة في منتصف القرن الثاني ميلادي حيث كانوا مكتفين بالمعبد الموجود في الساحة العمومية، وهذا يدعونا إلى القول أن المدينة كانت في الأصل معسكرا رومانيا ثم تحولت إلى مدينة حضرية. (حنان. 2009: 38)

2- التوسع والاكتشاف

أ-التوسع: لقد شيدت مدينة تيمقاد في شكلها الأول على مساحة لا تتعدى 11.50 هكتار، ولقد توسعت على أثر التطور العمراني الذي شهدته للتحول من مدينة صغيرة أو بالأحرى مركز عسكري يسكنه قدماء المحاربين ومن لهم علاقة بالرومان من النوميديين، ولقد شهدت المدينة توسعا خاصة على عهد الإمبراطور سبتيم سيفر 193-211م، حيث اتسعت المساحة إلى 50 هكتار وأنشأ مركز تجاري جديد غرب قوس النصر الذي كان عبارة عن نهاية مدينة تراجان من الناحية الغربية، كما بنى السكان أحياء جديدة متحررة من التخطيط الهندسي العهود لمدينة تراجان (عزت زكي. 2005: 257) حيث نجد أن منزل سرتيوس يشمل حوالي أربعة منازل متصلة ببعضها مع العلم أن الرومان كان عندهم قطعة الأرض لا تزيد على 2م400، ولكنه نظرا لمكانته في مدينة تيمقاد ولتقديمه السوق إلى المدينة، ومن هنا نلاحظ أن التوسع الذي شهدته المدينة كان لعدة عوامل من أهمها التطور الذي شهدته في عدد السكان حيث أصبح يستقر بها بين 10.000 إلى 15.000 ساكن في القرن الرابع ميلادي. (عزت زكي. 2005: 255-257)

ب-الاكتشاف: في القرن الثامن ميلادي أصبحت مدينة تيمقاد عبارة عن أكوام من الأتربة، وفي سنة 1765م قام الرحالة الانجليزي جيمس بريس (j-bruce) باكتشاف الجزء العلوي من المعلم الذي يدعى قوس تراجان حيث لفت انتباهه، ولقد بدأ الاهتمام بهذه المدينة الأثرية أثناء الاحتلال الفرنسي وكانت أول بعثة سنة 1851م من طرف روني (runi) ولقد كانت مهمة هذه البعثة هي الكتابات اللاتينية. (محمد. 1982:)

ومنذ سنة 1880م بدأت الحفائر الأثرية الرسمية، من طرف مصلحة الآثار والمعالم التاريخية تحت قيادة المهندس الفرنسي دتويت (duthoit) ولقد توقفت فترة من الزمن لتستأنف من طرف السيدين بالي وبوسويلد (A-BALLU/E-BOESWILLED) .

ولقد واصل بالي المجهودات من أجل إحياء المدينة وإعطائها سمعتها وتاريخها المجيد ثم توالى أعمال الحفريات والتنظيف والترميم في المدينة إلى غاية سنة 1957م حين تولى توران (TOURRENE) إدارة حفائر تيمقاد وتم الكشف عن مساحة تقدر بأكثر من ستين هكتار، (محمد. 1982:) وهي مساحة تمثل حوالي 75 % من مجموع مساحة المدينة حيث مازال حوالي 25% من المدينة لم يكشف بعد ومازال تحت الأتربة والصخور. (جمعية المعالم الأثرية. 2001: 9)

ثانيا- مرافق المدينة الرومانية (تيمقاد)

1- مرافق ذات طابع اجتماعي واقتصادي

أ- مرافق ذات طابع اجتماعي

1-الساحة العمومية (الفوروم): ولا تخلوا أي مدينة رومانية من هذا المرفق الهام، وهي عبارة عن ملتقى الطريقين الشمالي الجنوبي والشرقي الغربي(دوكومينوس-كاردو)، والساحة العمومية في تيمقاد مستطيلة طولها 50متر وعرضها 43م، ومبلطة بالأحجار الزرقاء (حنان. 2009: 36)، وتتكون الساحة العمومية من عدة مرافق ذات طوابع مختلفة كالمعبد والسوق وغيرها من المرافق الأخرى، وكما ذكرنا تعتبر الساحة العمومية مركز ديني وسياسي وتجاري (جمعية المعالم الأثرية. 2001: 10)، فهي قلب المدينة النابض بحركتها النشيطة في مختلف أوجه الحياة وتقام في الساحة العمومية هياكل شرفية يزداد عددها شيئا فشيئا (تماثيل القياصرة الأباطرة..) (مقابلة شخصية. 2010)، وكان أيضا الفوروم ملتقى الناس في وقت فراغهم وموعد آخرين لقضاء أشغالهم، كما تتم في الساحة العمومية الانتخابات ويوجهون من فوق المنبر الخطب العامة للشعب، وخطب الرثاء والكلمات التأبينية ترحما على الأشخاص ذوي الرتب العالية، وتؤدي فيها اليمين من طرف رجال سلك العدالة واستلام النبلاء والأعيان لمهامهم، إضافة إلى ذلك كانت الساحة العمومية عبارة عن مكان لإعلانات البرامج والاحتفالات القادمة وإعلانات البيع بالمزايدة والمحاكمات (أحمد. 1959: 343)، ومكان لمن يدفعهم الفضول لمعرفة أخبار اليوم ولذلك تم ترتيب مباني الفوروم حول ساحة تحيط بها الأروقة لكي يمكن للمواطنين إيجاد مكان وملجأ ضد الحرارة من اليوم وأيضا ضد الطقس (محمد. 1982: 23)، ولازالت تحتفظ الساحة العمومية بقرص ساعة شمسي، ألعاب ورسوم مختلفة نقشت بأداة

حادة نذكر منها: لعبة ضامة وتوجد في إحدى البلاطات بين أعمدة الساحة العمومية، وتوجد أيضا كتابة معبرة جدا وتقول :

"venari-lavari-ludere-ridere-occeť-vivire" ، ترجمتها كالتالي : القنص أو الصيد، والسباحة واللعب والضحك هذه هي الحياة (محمد. 1982: 27)، ومن خلال هذه العبارات نستطيع أن نستخرج أفكار عديدة عن الحياة التي وصل إليها الرومان وأهالي مدينة تيمقاد من ترف ورخاء كبير.

ومن خلال ما سبق عن الحديث في الساحة العمومية يمكن أن نقول أن الساحة العمومية كانت هي الشريان الحيوي لمدينة تيمقاد في شتى المجالات سواء السياسية أو الاقتصادية أو غيرها من المجالات الأخرى، ومن خلال توسطها فهي ملتقى عام للشعب ومنتفس لهم للتعبير عن آرائهم وتبادل الأفكار وغيرها من الأعمال الأخرى وبهذا تكون الساحة العمومية مركز المدينة بأتم معنى الكلمة.

2- الحمامات

تتميز المدينة بهذا الطابع الصحي إن أمكن القول ويتوفر في مدينة تيمقاد أكثر من 14 حمام عمومي، ولقد كانت الحمامات ملتقى للشعب يتبادلون الآراء السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها إذ أن الاستحمام كان هو آخر عمل يقوم به الفرد الروماني في الحمام، ولقد كانت الحمامات تدل على الحضارة التي آل إليها الرومان ومن أكثر المباني الدالة على عاداتهم وحبهم للحياة الصحية والرياضية (مقابلة شخصية. 2010)، ويمكننا القول أنه لا تخلوا أي مدينة رومانية من الحمامات، ولقد كانت الحمامات تقوم مقام المقاهي والنوادي في وقتنا الحالي، فلقد كان الفرد الروماني يقضي جل أوقاته في الحمام بعد الانتهاء من أشغاله التي تقضى في الساحة العمومية (أحمد. 1959: 343)، وقبل الحديث عن نموذج من نماذج الحمامات في مدينة تيمقاد يمكن القول أن الحمامات بصفة عامة تتكون من أربعة أجزاء وهي:

- 1- مكان خلع الملابس.
- 2- مكان الحمام البارد.
- 3- مكان الحمام المعتدل .

4- مكان الحمام الساخن. (جمعية المعالم الأثرية. 2001: 17)

ونظرا لأهميتها فلقد كان يوليها الرومان أهمية كبيرة من الناحية الجمالية وطبيعة بناءها، ولقد أبدع الرومان في شيء آخر من الحمامات وهو كيفية توليد الحرارة للحمام ولهذا كان يتكون الحمام من طابقين الطابق السفلي وهو مكان لتوليد الحرارة عن طريق المواقد التي كانت في الأسفل وهي عبارة عن صهاريج للتسخين، ثم يمر عبر فجوات إلى الأعلى وتخرج إلى فوق لتعطي السخونة للحمام. (Emile. 1891- 1905: 16)

وأنّ خير مثال لما قلناه لمميزات الحمام في المدن الرومانية وخاصة بمدينة تيمقاد موضع بحثنا هو الحمام الشمالي الكبير.

• الحمام الشمالي الكبير

شيد هذا الحمام في عهد الإمبراطور سبتيم سيفير (111م-193م)، ويعتبر أكبر حمامات المدينة ويتربع على مساحة قدرها (65×8650) متر مربع (حنان. 2009: 41) وبه غرف استحمام وغرف ملابس وغرف للصحة ومراحيض عامة وكذلك أحواض سباحة وعموما فإنّ معظم الحمامات تتوفر على ثلاث غرف وهي الغرفة الباردة وتليها المعتدلة الحرارة، ثم الغرفة الحارة جدا وهي الكالداريوم (Caldarium). فعند دخولنا للحمام نجد قاعة مستطيلة زينت أرضيتها بالفسيفساء وهي قاعة عامة للمستحمين وغيرهم، كما يوجد في إحدى جوانبها بيوت للصحة (عزت زكي. 2005: 190) ولقد زودت هذه القاعة بحوضين كبيرين نسبيا، وتستعمل للسباحة في فصل الحرارة، ونجد كذلك ممرين على اليمين وعلى اليسار وكلاهما يوصل المستحم لغرفة الكالداريوم، كما كان الرخام يكسو الجدران وفوقها كوات مزينة بأنواع التماثيل، وكانت معظم القاعات مفروشة بالفسيفساء. إنّ الفرد الروماني يأتي للحمام لقضاء وقته ويعتبر الحمام كالنادي أو المقهى في وقتنا الحالي (أحمد. 1959: 348) فيتجاذب أطراف الحديث مع أصدقائه في شتى الميادين، ويقوم الفرد الروماني بعدة أنشطة أخرى في هذا الحمام من إلقاء الشعر واللعب والاجتماع والاستطباب وغيرها من الأنشطة الأخرى.

• الموقف

يتساءل البعض عن كمية الماء المستخدمة في هذا الحمام بالإضافة لكونها مياه حارة، ويعود الفضل في ذلك إلى المهندسين الذين صمموا هذا الحمام حيث أنشؤوا مواقف لتسخين المياه، وعادة ما تكون هذه الأخيرة تحت الحمام ومرافقه ومنها تستمد الحرارة والماء اللازم، فكانت تصنع أواني كبيرة من البرنز وتوضع فوق مراحل ضخمة لتحضير الماء الحار (عزت زكي. 2005: 190) وبعدها يمرر الماء الساخن عبر قنوات إلى المغاسل والأحواض وكذلك يرسل الهواء الحار المتصاعد من خلال مجاري مظلة على الغرف، وبحكم وجود المواقف أسفل الحمام فإن أرضيته تكون حارة نسبيا وهكذا تتم عملية تسخين المياه وبعثها للغرف الخاصة بها.

ب- مرافق ذات طابع اقتصادي

يمكن أن نقول أن الوضع في شمال إفريقيا بصفة عامة في الهد الروماني كان قائما على كواهل أبناء الوطن، بحيث كانوا يقومون بجل الأعمال من بناء العمارة والمؤسسات الفخمة ومشاركتهم الفعالة في تضخيم الخزينة، بحيث كانت تفرض عليهم الضرائب الباهظة، وتموين روما بجميع الضروريات الاقتصادية من حبوب وفواكه وغيرها، ولقد كان الرومان يصفون شمال إفريقيا بخزينة روما (ROME GRANIRUM)، لكن كل هذا الاستغلال لم يكن سلبيا تماما حيث استفاد البربر بشيء من هذا الاقتصاد خاصة في المجال المعيشي الذي تحسن نحو الرخاء والرفاهية ولقد ازدهرت التجارة أيضا في العهد الروماني خاصة في فترة تراجان وهديان وأُسرة انطونينوس (192-98) حيث أصلحوا المواصلات بين البحر الأحمر والمتوسط فصارت التجارة حرة عبر مياهه (مقابلة شخصية. 2010)، وعبدوا الطرق بين المدن الرومانية لتسهيل النقل.

هذا بصفة عامة أما عن موضوعنا وهو الحالة الاقتصادية لمدينة تيمقاد فيمكن أن نقول أن تيمقاد تميزت بوجود مراكز اقتصادية وتجارية عدة منها الأسواق والدكاكين ودار للضرائب وغيرها من المرافق الأخرى وسوف نتحدث عن بعض هذه المرافق ونبدأ بالأسواق بالنسبة لمدينة تيمقاد فيوجد بها ثلاث أسواق رئيسية، السوق الشرقي وهو سوق مخصص لبيع اللحوم والأسماك وهو أقدم سوق في المدينة، وسوق سيرتيوس وهو

الخاص بالخضر والفواكه، ولقد قام ببنائه سيرتيوس وقدمه للمدينة تعبيراً لحبه للوطن، أما السوق الثالث فهو سوق للقماش ويقع غرب سوق سيرتيوس كما أنّ بعض المؤرخين يرى أنّه كنيسة وليس سوق، وذلك لوجود ملامح الكنيسة عليه والراجح أنّ الوندال حولوا هذا السوق إلى كنيسة كما حولوا عدة مراكز أخرى، والملاحظ هنا أنّ المدينة تزخر بوجود عدة دكاكين على طول الشارع الرئيسي الشرقي الغربي (دوكامانوس ماكسيموس)، وبذلك فإنّ المدينة كانت تساهم في صادراتها إلى روما.

1- سوق سيرتيوس

يقع هذا السوق غرب قوس النصر وجنوب معبد جيني، لقد قدم هذا السوق من طرف أحد أثرياء المدينة الذي يدعى بوليتيوس فوسيوس سيرتيوس (PLOTIUS FAUSTUS SERTIUS) في نهاية القرن الثاني للميلاد ويتربع هذا السوق على مساحة طولها 25 متراً وعرضها 15 متراً (مقابلة شخصية. 2010)، وخصص هذا السوق لبيع الخضر والفواكه، وبصفة عامة فإنّ الأسواق الرومانية في إفريقيا الشمالية وفي جهات أخرى من العالم الروماني يوجد بها فناءات مربعة أو مستطيلة تحتوي على دكاكين تتجه أبوابها إلى الرواق الذي يحيط بالفناء وفي وسط الفناء بناية دائرية إما نافورة أو حانوت، لكن هذا السوق والسوق الشرقي (سوق اللحوم والأسماك) خرجا عن هذه القاعدة، فإنّ سوق سيرتيوس هو عبارة عن فناء مستطيل محيط به رواق ذو أعمدة وبه حوض ماء(عبد الرحمان. 1965: 103) في وسط الفناء، أما الجهة الجنوبية منه فهي على شكل نصف دائري يحتوي على سبع غرف (شارل. 1969: 244) أو دكاكين مفصول بينها بجدار سميك.

2- دار قابض الضرائب

تقع هذه البناية على يسار الطريق الشمالي الجنوبي (كاردو ماكسيموس) بعد بناية متحف تيمقاد القديم، وبها ثلاث قاعات كبيرة ويوجد في قاعتين من هذه القاعات معصرة للزيت ولقد وجد في هذه الدار(دار قابض الضرائب) طاولة الكيل والمعروضة الآن أمام المتحف، وكذلك المذاود الكثيرة المتجاورة تحت جدران الغرف الصغيرة، ومن المؤكد أنّ الضرائب كانت قمحاً وشعيراً وتمرّاً وزيتوناً وغيرها مما كان يكال أو يوزن، وتعد هذه

المصلحة من أكبر المصالح الرومانية في إفريقيا حيث كانت تجبر السكان على أداء الضرائب وذلك لتزويد الإمبراطورية الرومانية بالمحاصيل الزراعية. (محمد. 1982:)

2- مرافق ذات طابع ثقافي وديني

أ- مرافق ذات طابع ثقافي

إنّ الاهتمام الثقافي للرومان في شمال إفريقيا تجسد في بناء وتشبيد المسارح على غرار ما هو موجود في مدينة تيمقاد، حيث نجد الاهتمام الثقافي العلمي والبارز من خلال المكتبة الموجودة في هذه المدينة.

1- المكتبة

لقد عثر لأول مرة في تيمقاد على آثار إحدى المكتبات العمومية التي كثيرا ما ورد ذكرها في النقوش والنصوص اللاتينية ويرجع الفضل في بناء هذه المكتبة إلى كرم مواطن ثري (محمد. 1982: 46) اسمه كاتتيوس فلافيوس الذي قام بأعباء هذا المشروع في القرن الرابع ميلادي، ولقد كلفته 400.000 سيسترس، ولقد تبرع بها لفائدة المصلحة العامة، وإثباتا لوطنيته وتعتبر هذه الأعمال التي يقوم بها الرجال الأثرياء شرفا فخريا لهم، ولقد تم اكتشاف هذه المكتبة في سنة 1901م في وقت غير بعيد من اكتشاف مكتبة أخرى في آسيا وهي مكتبة ايفاس (EPHOSE) بتركيا (شارل. 1969: 244)، و أما موقع المكتبة في المدينة فهي تقع على الجهة اليسرى من الطريق الشمالي الجنوبي، أي قبل تقاطع الطريقين الشمالي الجنوبي مع الشرقي الغربي، وتبلغ مساحتها الكلية (26م×25م). (محمد. 1982: 16)

ويمكن لنا أن نصف المكتبة على أنها تتخذ شكل نصف دائري، قطر محيطها 12م، و أما عن أماكن الرفوف المخصصة للكتب فلقد كانت هناك ثلاث مدارج مقطوعة بأعمدة وبين كل عمودين تظهر الخزانة التي كانوا يضعون فيها الكتب الملفوفة، ولقد كان المطالعون يجلسون فوق المدارج السالفة الذكر، ويوجد فوق بلاطات عالية عمودان من الرخام الأبيض مزينان وهذا المكان أقيم لآلهة العقل والمعرفة (منيرفا)، وعلى جانب هذه القاعة توجد غرف صغيرة الحجم ويمكن أن تكون هذه الغرف هي قاعات خصصت

لأغراض ثقافية كالمحاضرات وأعمال التدريس (شارل. 1969: 245)، ويمكن أن تحتوي المكتبة على 2300 مجلد.

وبهذا تكون المكتبة سرحا ثقافيا علميا بأتم معنى الكلمة لما احتوته من قاعات للمطالعة والمحاضرات وعدد المجلدات الضخم مع العلم أن مدينة تيمقاد كانت في بادئ الأمر مدينة عسكرية لقدماء الجند، وتعد مكتبة تيمقاد أيضا الوحيدة في إفريقيا والثانية في المستعمرات الرومانية بعد مكتبة ايفاس بتركيا.

ب- المسارح

حاول الرومان في جميع مدنهم إنشاء مراكز ثقافية ترفيهية مثل المسارح والملاعب، وإن أكثر هذه المراكز انتشارا هو المسرح الروماني سواء كان دائريا أو نصف دائري، فنجد في مدينة تراجان (تيمقاد) المسرح النصف دائري المخصص للعروض المسرحية والغناء وغيرها من الأنشطة الثقافية.

في الجنوب الشرقي من الساحة العمومية (الفوروم) يقع مسرح تيمقاد النصف دائري المتجه نحو الغرب، وتم إنشاء هذا المسرح عام 168م في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس، والمسرح الروماني كالمسرح الإغريقي له أصل ديني حيث قد بدأ لإكرام الإله الإغريقي (باكوس) إله العنب والخمر، (حنان. 2009: 48) وبني هذا المسرح على سفح ربوة وذلك لتسهيل عملية البناء الذي كان بابه الرئيسي متجه إلى الساحة العمومية من الناحية الجنوبية منها، أما عن تركيبة المسرح فيتكون من جدار منصة يليها المنصة وبعدها جوقة المسرح (الاوركسترا) وبعدها المصاطب أو المدرج وفي أعلى المدرج كان هناك شرف خاصة بالنبلاء. (جمعية المعالم الأثرية. 2001: 11) بالنسبة لجدار المنصة فلا يظهر تماماً وذلك راجع لنهب البيزنطيين لحجارته لبناء القلعة البيزنطية التي لا تبعد كثيرا عن مدينة تيمقاد. (محمد. 1982: 22)

منصة المسرح

وهي مخصصة للممثلين وذوي العروض، وكان يعرض بها روايات ذات عجائب غريبة، أو مسرحيات قصيرة (محمد. 1982: 32) أو فكاهية وكذلك يلقي بعض الشعراء

شعرهم والمغنين أغانيهم، وهي على شكل مستطيل (30×5متر) والتي تحتل قطر نصف دائرة المسرح وجوقته، كما ساعد الشكل النصف دائري على انتقال الصوت من الأسفل إلى الأعلى. (مقابلة شخصية: 2010) ولم يبق من خشبة المسرح سوى الأحجار التي كانت ترتكز عليها المنصة الخشبية والتي مازالت تستعمل إلى حد الآن في المناسبات.

جوقة المسرح (الأوركسترا)

عند الدخول إلى المسرح نجد أنفسنا في جوقة المسرح (الأوركسترا) وهي عبارة عن فناء صغير على شكل نصف دائري، فعلى اليمين خشبة المسرح التي يفصل بينها وبين الأوركسترا جدار صغير بني بالآجر وبه خمس دكات، كما أن العازفين كانوا يتواجدون في هذه الجهة من الأوركسترا، أما عن الجهة اليسرى فهناك ثلاث دكات عريضة كان الرومان يضعون فوقها الأرائك ليجلس عليها الحاكم والمسؤولون، ويفصل بين جوقة المسرح والمدرج جدار حجري مقوس به فتحة توصل لأعلى المدرج. (محمد. 1982: 32).

المدرج

يرى مدرج المسرح من مسافة بعيدة وذلك لكبر حجمه، ويتكون هذا القسم من المسرح من عدة عتبات مفصول بينها بجدار صغير يشبه الجدار الفاصل بين المدرج والأوركسترا، إلا أن هذا الجدار به خمسة فتحات وليس فتحة واحدة وكل واحدة منها توصل إلى أعلى المدرج، فالقسم السفلي من المدرج كان مخصص للطبقة البرجوازية والأعيان من المدينة، أما القسم الثاني منه (الجزء العلوي) فهو مخصص للعامة وبقية الشعب. فالملاحظ هنا أن الطبقة كانت تضرب أطناها في هذا المسرح وتتضح أكثر عند الشرف الموجودة في أعلى المدرج والمخصصة للنبل، (إلا أنها لا تظهر في وقتنا الحاضر بسبب انهيارها) لكي لا يكون هناك اختلاط بين العامة والنبل. أما من ناحية اتساع المسرح فإنه كان يستوعب ما بين 3500 إلى 4500 متفرج.

ب- مرافق ذات طابع ديني

لقد كان الوضع الديني للرومان بصفة عامة ذو طابع وثني حيث كانت لهم الآلهة بالآلاف وسبب كثرة هذه الآلهة هو جعل لأي ظاهرة من الظواهر إلها خاصا بها

مثل: الحصاد، التجارة، العقل، وغيرها من الآلهة الأخرى وأهم الآلهة التي كانت تعبد عند الرومان هي جبتور، جينون، منيرفا، ويمكن أن نشرح كل واحدة من أسماء هذه الآلهة فجيبيتور تعني المشتري (اله المطر)، وجينون هي آلهة النور والزواج، ومنيرفا آلهة الفطنة والعلم (محمد. 1982: 32)، لقد شيدت في مدينة تيمقاد عدة معابد وأهمها معبد الكابيتول الذي شيد ليحتضن الثالوث الإلهي (جيبيتور، جينون، منيرفا)، ومعابد أخرى موزعة في مختلف نواحي المدينة.

أ- معبد الكابيتول

ويعتبر الكابيتول من أهم البنايات في المدينة الرومانية إذ لا تخلوا أي مدينة رومانية من هذا المظهر الديني، وكما قلنا فلقد أقيم هذا المعبد تكريما للثالوث الإلهي (جوبتير، جينون، منيرفا) (جمعية المعالم الأثرية. 2001: 18)، وأصل كلمة كابيتول هي (كابي) وتعني المرتفع أو المكان العالي (مبارك. دس: 249)، والملاحظ هو أن مدينة تراجان لم تحتو على مبنى الكابيتول وذلك بدليل وجود المعبد في الساحة العمومية وآخر بجوار المسرح (شارل. 1969: 241)، ولذلك نجده خارج أسوار المدينة القديمة، ولقد أعيد تشييد هذا المعبد في عهد الإمبراطور فلاننتين (VALENTIENE) 365-367م، ولقد ذكر اسمه في كتابة أسفل التاج (مقابلة شخصية: 2010) وأما عن موقع الكابيتول فهو يوجد بالقرب من قوس النصر وسوق سرتيوس ولقد شيد في وسط فناء طوله 90 متر وعرضه يتراوح بين 62 و68 متر، ونستطيع مشاهدة بناية الكابيتول على بعد عدة أميال من تيمقاد (عزت زكي. 2005: 359) وذلك لوجوده في مكان مرتفع بالإضافة إلى طول أعمدته الشاهقة التي تصل إلى 14 متر والتي لم يبق منها سوى عمودين وأما باقي الأعمدة الأخرى فقد سقطت وكان عددها 14 عمودا (محمد. 1982: 48)، وأما المنصة فتبلغ مساحتها 11×17 متر، والتي كانت مخصصة لتمائيل الآلهة ولم يبق من هذه المنصة سوى أسس الجدران. (محمد. 1982: 32)

كما نجد بمعبد الكابيتول مذبح وهو مكان مخصص لتقديم القرابين إلى الآلهة، ويوجد به أيضا منصة خاصة بالكاهن يلقي من خلالها التلاوات والخطب.

ولقد كشفت الحفريات على وجود ثلاثة معابد صغيرة على الرتبة التي بني عليها الكابيتول وبذلك يكون القسم الجنوبي من المدينة محاطا بالمقادس. (شارل. 1969: 241)

إنّ تشييد هذا الصرح العظيم والمتمثل في معبد الكابيتول الذي أعطى للمدينة هبة كبيرة كما أنّ الرومان أعطوا لهذا العبد هبة أكثر ويتضح ذلك من خلال العتبتين الموجودتين على طريق المعبد وهما عبارة عن مدخل روحي للمعبد حيث إنّ الفرد الروماني عند وصوله لهاتين العتبتين فإنّه عليه التزام الصمت وتجريد فكره من أيّ أشغال وتحويله مباشرة لفكر روحي إلهي. (محمد. 1982:)

3- مرافق ذات طابع سياسي

1- دار البلدية

وتقع هذه البناية في الجهة الغربية من الساحة العمومية، جنوب المعبد وحديقته، وكانت جاهزة للعمل في سنة 116م وللبلدية ثلاث أبواب، باب مركزي وعلى جانبيه بابان صغيران يفصل بين الأبواب عمودان منقوشان، فعند الدخول للبلدية نجد قاعة مستطيلة الشكل وبها رواق في آخره عتبات توصل للقاعة الرئيسية (15م×8م) المبلطة، ومزينة بمنصة وقواعد كانت تحمل تماثيل وهياكل منها هيكل الإمبراطور تراجان وهيكل يرمز للنظام وهو تمثال ديني، الذي في اعتقادهم أنّه يضمن سداد خطي المجلس وموافقة الجميع على القرارات الصادرة من المجلس. (حنان. 2009: 50)

كان أعضاء المجلس البلدي يعقدون اجتماعاتهم الدورية لمناقشة القضايا التي تهم إدارة وتطوير المستعمرة في مختلف الميادين، حيث كان ينتخب هذا المجلس من بين عدة أسماء العظماء في المدينة، أما الجهاز الإداري فيتكون من المجالس البلدية ومجلس الشيوخ والقناصل وحكام آخرين مختصين بالمال وأعمال الدولة. (مقابلة شخصية: 2010)

فالمجلس البلدي مسؤول عن توزيع الضرائب على الشعب وجمعها منهم وإذا لم يستطع أعضاء المجلس جمع هذه الضرائب فإنّهم يجبرون على دفعها من حسابهم الخاص، لذلك كان الكثير من عظماء المدينة يتهربون من تقلد هذه المسؤولية، وهذا النظام مطبق في جميع الإمبراطورية الرومانية.

من الجهة الجنوبية الغربية للبلدية توجد بناية ذات تخطيط معقد، لعلها كانت مكاتب لمختلف مصالح البلدية، أو أنها مركز شرطة حراسة الساحة العمومية. (محمد. 1982: 28-29)

2- المحكمة

توجد في الجهة الشرقية من الساحة العمومية المحكمة، التي بها قاعة كبيرة مستطيلة الشكل طولها 28 متر وعرضها 20 متر، وهي مبلطة ومزينة بالتماثيل كما يصل ارتفاع هذه البناية 14 مترًا على أقل تقدير، في الجهة الشمالية من هذه المحكمة توجد غرفتان صغيرتان تتوسطهما غرفة صغيرة بشكل نصف دائري حيث كان يجلس القاضي بها للبت في القضايا المحالة للمحكمة، أما في الجهة الجنوبية من المحكمة توجد منصة وعلى يسار هذه المنصة سلم يؤدي إلى كوة عريضة ورائها وبين المنصة والكوة عمودان عاليان، كما يشغل الجدار الشرقي للمحكمة ستة مكاتب لإدارة المحكمة، وعموما فإن المحكمة كانت عامرة بتمائيل الأباطرة والآلهة. (شارل. 1969: 246)

4- مرافق أخرى

أ- قوس تراجان

كانت أقواس النصر في معظم المدن الرومانية، وتشيّد في غالب الأحيان على مداخل المدن ولها فتحة واحدة غالبا كما هو الشأن في دقة وسيطة وحيدة وجميلة، ولها أحيانا فتحتان كما نجد في عنونة، ولها في كثير من الأحيان ثلاث فتحات (فتحة كبيرة في الوسط وفتحتان صغيرتان على جانبيها) كما هو الأمر بالنسبة لقوس تراجانوس في تيمقاد وسبتيموس سيفيريوس في لمبيز، وقلما نجد قوس النصر متركبا من أربع فتحات كما هو الشأن بالنسبة أقوس كراكلا في تبسة. (جمعية المعالم الأثرية. 2001: 21)

ويظهر هذا الصرح العظيم من مسافة بعيدة والقابع في الجهة الغربية من المدينة، وهو موجود على الطريق الشرقي الغربي (دوكامينوس ماكسيموس) وبني هذا القوس على أطلال الباب الغربي لمدينة تراجان في عهد الإمبراطور (سبتيم سيفير) (محمد. 1982: 42)، أما عن تسمية هذا المعلم فإنّ المنقبون هم من أعطوه الاسم الحالي " قوس تراجان "

رغم أنه بني في عهد الإمبراطور سبتيم سيفير (193 م - 211 م) وبقي هذا الاسم رغم مخالفته للحقيقة. (مقابلة شخصية: 2010)

وقوس تراجان في مدينة تيمقاد من الأقواس ذات الثلاث مداخل أو أبواب فالباب الأوسط من هذه الأبواب هو الأكبر ويبلغ ارتفاعه 6.6 متر وعرضه 3.5 متر، وهو مخصص لدخول العربات ويظهر أثر العجلات واضح على الأحجار الزرقاء المبلط بها الطريق، أما الأبواب الجانبية فهي مخصصة للمشاة، عرض كل واحد منهما 1.75 متر وارتفاعه 3.8 متر. (محمد. 1982: 42) وفوق هذان البابان كوات مستطيلة كانت توضع فيهما التماثيل، ويبلغ ارتفاع القوس كاملاً 12 متراً (محمد. 1982: 43)، كما يوجد تحت هذا القوس مجموعة كبيرة من أنصاف الأعمدة (نقط كيلو مترية) تحمل كتابات تبين للجيش وسط المدينة وبداية الطريق كما تحمل أيضاً أسماء الأباطرة الذين اتخذوا قرارات حاسمة لفائدة تحسين طرق المواصلات. (محمد. 1982: 43)

ب - المنازل:

يمكن القول أن المنازل الرومانية بصفة عامة هي تشابه في تصميمها المباني الإغريقية حيث لا يوجد بها نوافذ للحائط الخارجي، وتنقسم إلى قسمين أما القسم الأول وهو باب المنزل الذي يقابل الطريق ويؤدي هذا الباب عبر طريق إلى فناء المنزل، وأما القسم الثاني وهو وسط المنزل ويمكن أن يتكون من حوض ونافورات وبها توجد المرافق الأخرى للبيت من غرفة نوم وأكل وغيرها. (حنان. 2009: 20)

وأما في تيمقاد فنجد أن المنازل تكونت عن طريق تقاطع الطرقات الفرعية والأساسية التي شكلت مربعات تبلغ مساحتها حوالي 20×20م وعن طريق هذه التشكيلات من المربعات خصصت لبناء المنازل، ومع مرور الوقت ازداد عدد السكان في المدينة فهدمت الأسوار التي كانت تحيط بها وبنيت منازل أخرى وتتشابه المنازل بتيمقاد من حيث مرافقها الداخلية فنجد أن المنازل تحتو على فناء وأعمدة في فناء المنزل. ومن أشهر المنازل بالمدينة هو منزل سرتيوس.

- منزل سرتيوس:

إنها بناية مهمة وتعطي صورة كاملة الشكل على منازل أغنياء تيمقاد في القرن الثالث الميلادي. يطل مدخلها الرسمي على رواق الطريق الكبير، وبعده نجد سقيفة واسعة مبلطة بالأحجار وفي وسطها حوض ونرى على اليمين بيت الحارس وعلى اليسار مراب للعربات وفي الزاوية الشرقية الشمالية دكاكين تتجه أبوابها للطريق العام، وتتصل بالمنزل بأبواب خلفية، تتقدم قليلا نحو الغرب، إلى الواسع الذي تحيط به الأعمدة من ثلاث جهات لنرى في وسطه حوض الماء المستطيل، والغرف الصغيرة المشيدة على اليسار، والتي كان يستعملها صاحب المنزل كمكاتب لإدارة أملاكه وعقاراته، وتوجد غرفة من هذه الغرف بالأجر لعلها كانت تستعمل للتسخين ونشاهد على يمين الفناء الحمام الخاص.

أما القسم الغربي من المنزل فإنه يشتمل على مطبخ وقاعة للأكل وعدة غرف للسكن وعلى رواق داخلي وفناء واسع أيضا به حوض مستطيل مسقف ببلاطات طويلة ومزين بحوض صغير على شكل نصف دائرة، مصنوعة من الرخام الأبيض ومنقوش. (محمد. 1982: 51)

وهكذا من خلال وصفنا لهذا البيت فنلاحظ أنّ الطبقية كانت متفشية في المدينة فمنازل العامة كانت عادية ومجملها نفس الحجم حيث لا يتجاوز حجم أي منزل 400م²، ولكن الأثرياء والطبقة العالية من المجتمع الروماني في المدينة كانت منازلهم عكس التصميم المتخذ للمدينة.

الخاتمة

وهكذا بعد أن أتممنا موضوع بحثنا وحاولنا أن نعطي فكرة عن العمران ببلاد المغرب القديم وعن أهم مدنه ومنها مدينة تيمقاد التي كانت محور دراستنا وبعد هذه الدراسة نستطيع القول أنّ الاحتلال الروماني في الشمال الإفريقي لم يكن في نيته الاحتلال فقط بل كان يريد الاستقرار بالمنطقة وامتلاكها، وأنّ مدينة تيمقاد هي خير دليل على هذا الاستقرار، بما تميزت به من وجود كامل المرافق الضرورية للمكوث بالمدينة، وأنّ المدينة لهاي تحفة أثرية بأتم معنى الكلمة لما يميزها عن باقي المدن الرومانية التي أصابها الانهيار وغيرها من الظروف الطبيعية، وما زالت تيمقاد من خلال أطلالها تروي

قصة شعب عظيم كان يقطن بها في فترة من التاريخ، ولكن هذا الاستقرار وهذه الحضارة لم تدم لأن الشعب البربري والأصلي لم يكن يقبل أي دخيل على منطقته وبلاده ولم يكن يرضى أن يحكم من طرف أي شخص آخر، وإنما كان شعبا يريد الحرية ويرفض العبودية وهو ما سعى إليه وحارب من أجله من أول احتلال إلى آخر احتلال ومن خلال هذه الدراسة التي قمنا بها نخرج بعدة استنتاجات ومنها:

- إنّ المدينة في شمال إفريقيا ليست اختراعا أجنبيا كما تريد بعض الأطروحات المغرضة أن تقول، وإن كانت المدينة في إفريقيا القديمة تفتحت على حضارات تعاقبت عليها الواحدة تلو الأخرى، فإنّ نواتها ليبية نوميديّة باعتبار المغرب القديم عرف مفهوم المدينة قبل الوجود الروماني.

- أنّ المدينة النوميديّة كانت أغلبها بناء جنازري متأثرة بما سبقها من فنون في العمران خاصة الحضارة الإغريقية.

- أنّ المدينة الفينيقية كانت أول الأمر مدينة لا تحتوي على قدر كبير من الاهتمام الحضاري والعمراني وإنّما بنيت بغرض تجاري بحث لكن تطورت فيما بعد وتوسعت.

- يلاحظ التطور بين الوظيفة وشكل المبنى والعمارة الرومانية مثل الحمامات والمباني التجارية وأفواس النصر والنصب التذكارية.

- لم يؤثر الجانب الديني على العمارة عند الرومان، فقد ساعد هذا العامل على ألا تكون المباني الدينية هي المسيطرة بل أنشأت مبان أخرى كثيرة ومختلفة الوظائف.

- مقارنة بالمرافق العمرانية المنشأة في العاصمة روما وبين التي شيدت في المدن الرومانية في المغرب القديم نجد أنّ هناك نفس المرافق تقريبا ومن ذلك نستنتج أنّ هدف الرومان في بناءها هو توفير المرافق الضرورية لشعبها وليس لإعمار المغرب القديم، بل هو تشجيع للاستيطان الروماني في المنطقة.

- على الرغم من أنّ فكرة تشييد مدينة بكل مرافقها على أرض المغرب كانت فكرة رومانية إلا أنّ تنفيذها على أرض الواقع كان بسواعد نوميديّة مغربية.

المراجع:

- مبارك بن محمد الميلي (دس): تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تق، نص: محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج1.
- عبد السلام بوشارب (1996): تبسة معالم وآثار، المؤسسة الوطنية لاتصال والنشر والإشهار، الجزائر.
- يحي بوعزيز (2009): الموجز في تاريخ الجزائر، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ج1.
- محمد الصغير غانم (2003): معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.
- أحمد بوساحة (2001): أصول أقدم اللغات في أسماء أماكن الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ج1.
- عبد الرحمن بن مرزوق (1992): الضريح الملكي النوميدي مدراسن، مجلة التراث، تصدرها جمعية التاريخ والتراث الأثري، باتنة، العدد5.
- حنان داودي، شهلة عكروت، نعيمة نصر الشريف (2009): مرافق المدينة في المغرب القديم: مدينة تيموقادي نموذجا، مذكرة ليسانس، تخصص تاريخ عام، اشراف الاستاذة: مها عيساوي، جامعة تبسة.
- محمد الصغير غانم (2008): سيرتا النوميديّة النشأة والتطور، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.
- مرافق المدينة في المغرب القديم (2009): مدينة تيموقادي نموذجا، مذكرة ليسانس، تخصص تاريخ عام ، جامعة تبسة.
- أحمد صفر (1959): مدينة المغرب العربي في التاريخ، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس.
- شارل أندري جوليان (1969): تاريخ إفريقيا الشمالية تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م، تع: محمد مزالي، البشير بوسلامة، الدار التونسية للنشر. تونس.
- جمعية المعالم الأثرية (2001): "دليل اثار تيمقاد(تاموقادي)" ، باتنة,
- دليل تيمقاد (دس): آثار الرومان والبيزنطيين(فرنسي)، اصدرات مديرية السياحة والفنون، باتنة

-ALBERT BALLU (1894) :MONUMENTS ANTIQUES DE L'ALGÉRIE :Tébessa ,Lambése ,Timgad , berthaud frères ,Paris,p30

- عزت زكي حامد قادوس (2005): أثار العالم العربي في العصرين اليوناني والروماني(القسم الإفريقي)، الإسكندرية ،مطبعة الحضري.

- مقابلة شخصية مع: سليم بن عايشة، مدير الديوان السياحي بتيمقاد، بمقر دائرة تيمقاد، يوم 2010/01/7.

- محمد تغليسية (1982): "دليل أثار ومتحف تيمقاد"، دار المعلم للنشر والتوزيع، الجزائر.

- مقابلة شخصية مع: سليم بن عايشة، مدير المركب السياحي بتيمقاد، بمدينة تيمقاد الأثرية، يوم 2010/01/14.

- Emile Boeswillwald: timgad un cité africaine sous l'Empire romain, E.Leroux, Paris, 1891-1905, p16

- عزت زكي حامد قادوس: مدخل إلى علم الآثار اليونانية والرومانية، الحضري للطباعة، الإسكندرية، 2005م.

- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، مكتبة الشركة الجزائرية، مكتبة الحياة اللبنانية، ط2، ج1، 1965م.

المنظور الانثروبولوجي لإشكالية البيئة في الجزائر

"بين التركة الكولونيالية ومشروعات التنمية الريفية"

الدكتور ساسي سفيان*

الملخص:

البيئة في الجزائر من القضايا التي تثير جدلا فكريا أثناء الحديث واقعها ومشكلاتها، وإن كان هذا الجدل يرتبط بشكل كبير إلى التراكمات التاريخية، الممارسات السلبية والترسبات المعرفية، فإننا في الواقع لا نجد في مقابل ذلك وعي بالمشكلات البيئة، لذا سنسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى رؤية أنثروبولوجية لمسار إشكالية البيئة في الجزائر وذلك من أجل تشييد ثقافة بيئية ممارساتية.

Le résumé

La situation de l'environnement dans notre pays est alarmante. En effet, la dégradation des ressources naturelles se traduit par la régression du couvert végétal et la progression des paysages désertiques.

l'environnement en Algérie c'est une question qui donnent lieu à des controverses intellectuelles au cours de ses problèmes, si cette controverse liée en grande partie à des accumulations historiques, pratiques négatives et négligences,

Je essaie à travers cette étude anthropologique Etude des problèmes environnementaux depuis l'occupation française à ce jour, Afin d'établir une culture environnementale auprès des citoyens.

المقدمة

تتناول هذه الورقة البحثية العودة إلى ظروف ومراحل التحول التي عاشها المجتمع الجزائري، منذ الفترة الكولونيالية (colonialism) إلى يومنا هذا، لتشخيص طبيعة وعلاقة الإنسان الجزائري ببيئته، لكن قبل التدقيق في هذه القضايا يجدر بنا أن

* - أستاذ بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية بجامعة الشاذلي بن جديد - الطارف / الجزائر.

نتساءل عن مفهوم البيئة، الثقافة البيئية، وعلاقة ذلك بالعلوم الاجتماعية، وهل أن قضايا البيئة ترتبط فقط بعلوم الطبيعة، أكثر من غيرها؟ أم أن للمجتمع، الجماعة والفرد دور كبير في ترقيتها؟ ما هي إشارات ومبادئ الوعي البيئي التي يمكن أن نعرث عليها في ثقافة وسلوكيات المجتمع الجزائري؟ وهل يكفي التنديد بالسلوكيات المهددة للبيئة؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه في هذه الدراسة.

أولا. البيئة. مفاهيم ومصطلحات

1. البيئة

إن الاتفاق على تعريف عبارة "بيئة" (environnement) هي مراهنه حقيقية، ألا يشير ج. ثيس (J. Theys) إلى هذا الغموض الدلالي المستغرق؟ (Theys.1993: 347-340) لكنه، يوقع تعريف البيئة في قلب المفاوضة الاجتماعية المستديمة على تخوم "الفضاء العام والفضاء الخاص"، "الثقافة والطبيعة"، "المنطق التقني ومنطق الحياة"، "عالم الأنساق" و"عالم المعاش"، وقد خصص تقريراً بكامله، حول التعريف والمفاهيم التي يعتبرها غير قابلة للاختزال عن البيئة"، فهو يميز بين ثلاثة مفاهيم للبيئة، حسب المعنى المعطى للعلاقات التي يقيمها الإنسان مع محيطه.

وفي السياق ذاته، يعرف ل. سوفي (L. Sauvé) البيئة كواقع سياقي، يتحدد بواسطة العديد من النقاط منها المنظور والهدف الشامل، اللذان يتم فيهما تناول هذه البيئة، ويقترح سوفي، نموذجية أخرى للمفاهيم حول البيئة: البيئة كمشكلة تبحث عن حل، البيئة كثروة تستدعي التسيير، البيئة هي الطبيعة التي تتطلب التقدير، الاحترام والحماية والبيئة كمحيط (SAUVÉ.1991: 115)

2. الكولونيالية

تعرف الكولونيالية، (Colonisation) أو الاستعمار على أنه ظاهرة تهدف إلى سيطرة دولة قوية على دولة ضعيفة وبسط نفوذها من أجل استغلال خيراتها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهي بالتالي نهب وسلب منظم لثروات البلاد المستعمرة، فضلا عن تحطيم كرامة شعوب تلك البلاد وتدمير تراثها الحضاري والثقافي، وفرض ثقافة الاستعمار على أنها الثقافة الوحيدة القادرة على نقل البلاد المستعمرة إلى

مرحلة الحضارة. الاستعمار إخضاع جماعة من الناس لحكم أجنبي، ويسمى سكان البلاد المستعمرين، وتسمى الأراضي الواقعة تحت الاحتلال البلاد المستعمرة، وغالبا ما ترسل الدولة الأجنبية سكانا للعيش في المستعمرات وحكمها واستغلالها مصادر للثروة، ويعرف قاموس أكسفورد كلمة (Colonialisme) بأنها ممارسة يتم من خلالها اكتساب السيطرة على بلد آخر باحتلالها عبر المستعمرين أو المستوطنين واستغلالها اقتصاديا.

ارتبطت الظاهرة الكولونيالية بالنهضة الأوروبية وعصر الاستكشافات وتعزز السلطات المركزية في كل من البرتغال، إسبانيا، بريطانيا، فرنسا وبعض الممالك الإيطالية، حيث شهدت أوروبا في نهاية القرون الوسطى تطورات تكنولوجية سريعة، خاصة في مجال الملاحة، بحيث تمكنت السلطات المركزية الأكثر استقرارا من تمويل مشاريع طموحة تشمل إرسال بعثات من الملاحين والجنود والمستوطنين إلى مواقع بعيدة عن بلادهم الأصلية.

للاستعمار ثلاثة أشكال، منها الاستيطاني كما في أستراليا وكندا، والاستعمار غير الاستيطاني، ومنه الهند ونيجيريا وسيرلانكا وغيرها، وهناك المستعمرات التي تم استيطانها بواسطة المهاجرين الأوروبيين، وكانت مأهولة بالسكان، ومنها جنوب إفريقيا وزيمبابوي، غير أنّ هذه التقسيمات تؤكد أنّ الفكر والممارسة الكولونيالية ينطلق من افتراض أنّ مناطق جغرافية تخلو من السكان مثل الأمريكيتين وأستراليا، ومن هنا يلجأ الاستعمار إلى تبرير احتلاله لمناطق تواجد الآخر، وبذلك فهو يتجاهل أو ينفي وجود السكان الأصليين في هذه المناطق، مثل ما حدث في الأمريكيتين أين تم تجاهل الهنود الحمر باعتبارهم السكان الأصليين أين تم نفيهم وممارسهم كل أنواع التهمي والإقصاء في حقهم إلا أنّ أصبحوا أقلية مجتمعية لا تعدو تعترف بها في المكون الأساسي للمجتمع الأمريكي، ولعل الاستعمار الاستيطاني يتجلى حاليا في أبشع أشكاله كما في فلسطين، فضلا عن ظهور نمط آخر يتمثل بالإمبريالية الجديدة المتعددة الجنسيات أو الشركات، وهو ما يصطلح عليه بالاستعمار الجديد (Néo-colonialisme)، والذي يعد شديد الارتباط بالعولمة المعولمة.

وفي هذه الدراسة مصطلح الكولونيالية يعبر عن الفترة التي عاشتها الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي، وتحديدًا منذ عام 1830م وإلى غاية 1962، وفي هذا الإطار

سيتم التطرق إلى سياسات الإدارة الاستعمارية الفرنسية فيما يخص قضايا البيئة في الجزائر.

3. الربع

الربع لغة تعني النماء والزيادة ويقال أرض مربعة أي مخصصة وريعان كل شيء أوله ومنه ريعان الشباب وفرس رائع أي جواد أما في الاقتصاد السياسي الجزء الذي يؤدّيه المستأجر إلى المالك من غلة الأرض مقابل استغلال قواها الطبيعية التي لا تقبل الهلاك.

في عام 1970 صاغ الاقتصادي الإيراني حسين مهدي المفهوم الحديث للربع، من حيث علاقته بالدولة، حيث عرّف الدولة الريفية بأنها الدولة "التي تحصل، وبشكل منظم، على كميات معتبرة من الربع الخارجي التي تدفع من قبل أشخاص أجانب، أو هيئات أو حكومات أجنبية، لمصلحة أفراد أو هيئات أو حكومة الدولة المعنية (سميث، 2004: 232-246)، كما أن للربع تعريفات مختلفة، من بينها أنه الدخل القانوني، الذي يأتي من غير الإنتاج، مثل الدخل الذي يحصل عليه الرأسمالي المبتكر من قدرته على رفع الأسعار نتيجة الاحتكار، أو الدخل الذي يحصل عليه صاحب العقار، كإيجار عن شغل العقار أو عند بيعه، ففي كلتا الحالتين الدخل قانوني في ظل الرأسمالية وليس نتيجة إنتاج يقوم به الرأسمالي أو العامل، بل نتيجة احتكار للسوق أو لمورد طبيعي، كالأرض التي يُبنى عليها العقار.

ومن المهم هنا ملاحظة أن الربع ليس متعلقا ببيع النفط أو الغاز فقط، بل إن الربع قد يأتي من احتكار طرق المواصلات، كما يحصل من قناة السويس (قناة من صنع البشر)، أو في الربع من تأجير بعض الدول لموانئها لدول لا تطل على البحر، أو من تأجير القواعد العسكرية، كما قد ينتج الربع من احتكار مختلف الأسواق، ولذلك فإنّ مصادر الربع ليست بالضرورة بالاعتماد على النفط أو الغاز، وليست مقتصرة على الدول العربية المصدرة للبترول أو الغاز وغيرها من الدول النفطية، لكن في حالة الدولة الريفية، يجب أن يكون من يدفع الربع أجنبيا أو يسدد ثمنها بالعملات الأجنبية، لأنّه لو لم يكن أجنبيا لما أثر على مجمل الدخل في الدولة، فبما أنّ الربع ليس حصيلة إنتاج معين، فهو بالضرورة حصيلة إعادة توزيع للثروة من دافع الربع إلى محصله، وبالتالي لو كان الربع مقتصراً

على معاملات داخل الدولة، لما أنتج دخلاً جديداً على مستوى المجتمع.. لذلك، يجب أن يكون الربح مدفوعاً من الخارج، ليؤثر على دخل الدولة كتحويل من خارج الدولة لداخلها.

أما التعريف الأكثر اعتماداً اليوم في أوساط الأكاديميين المهتمين بقضايا الربح في الدول النامية فهو لـ: حازم الببلاوي والاقتصادي الإيطالي جياكومو لوتشيان (Beblawi & Luciani) (الببلاوي. 1990: 85-98) حيث قاما بالتمييز بين مفهوم واسع هو الاقتصاد الريعي ومفهوم أضيق هو الدولة الريعية، ولنبداً بالمفهوم الواسع حيث يتميز الاقتصاد الريعي بأربع خصائص إن وجدت في اقتصاد ما صح وصفه بالريعي، والخصائص هي:

* مصدر الربح خارجي.

* يشكّل الربح الخارجي العامل المهيمن في الاقتصاد، وعُرفت «الهيمنة» بشكل عام بـ 40 % من دخل الدولة.

* يخطط معظم السكان في استهلاك أو توزيع الربح وليس إنتاجه.

* المتسلم الأساسي للربح هو الحكومة (السلطة أو الدولة).

أما بالنسبة لتعريف الدولة الريعية هنا، فهي حلقة الوصل بين الاقتصاديات الخارجية والاقتصاد المحلي عبر سيطرتها على المدخول من الربح.

هناك أيضاً تبعات اقتصادية لوجود اقتصاد ودولة ريعيين، منها الميل باتجاه الاهتمام بالقطاعات الاستهلاكية والاستيراد أكثر من القطاعات الصناعية، والسبب هو أن الربح يوفر مصدراً ميسراً إلى حد ما للدخل مقارنة مع الصناعة (ويلسون. 1989: 195) أو الزراعة، وبالتالي لا يبدو التركيز على تطوير الصناعة خياراً طبيعياً للدولة الجزائرية، طالما أن مصدر الربح ميسر وكاف، وطالما لم يتم استثمار مدخول الربح في الصناعة، فإنّه بالضرورة سيذهب إما إلى الادخار أو الاستهلاك، وما يتم ادخاره سيكون مآله الاستهلاك، ما دما قد صرفنا النظر عن الاستثمار في بنية قاعدية تنموية.

4. الإيكولوجيا

المصطلح إيكولوجيا (Ecology) مأخوذ من المصطلح الإغريقي (Oikos) أي بمعنى منزل أو محل الإقامة وكلمة (Ogos) أي بمعنى العلم الذي يدرس الكائن الحي في مكان إقامته أو منزله، حيث يتأثر الكائن الحي بمجموعة عوامل حيوية (بيولوجية) وعوامل غير حية (كيميائية فيزيائية) ينتج عنها علاقات قد تكون إيجابية أو سلبية أو كلاهما معاً.

وهناك من الباحثين من يمزج بين مصطلح علم البيئة (Ecology) والبيئة المحيطة (Environmental) والتي تعرف على أنها (مجموعة النظم الطبيعية، والاجتماعية، التي تعيش فيها الكائنات الحية، والتي تستمد منها حاجاتها وتؤدي فيها نشاطاتها).

علم البيئة هو الدراسة العلمية لتوزيع وتلاؤم الكائنات الحية مع بيئاتها المحيطة وكيف تتأثر هذه الكائنات بالعلاقات المتبادلة بين الأحياء كافة وبين بيئاتها المحيطة. بيئة الكائن الحي تتضمن الشروط والخواص الفيزيائية التي تشكل مجموع العوامل المحلية اللاأحيائية كالطقس والجيولوجيا (طبيعة الأرض)، إضافة للكائنات الحية الأخرى التي تشاركها موطنها البيئي (مقرها البيئي).

اكتشفها عالم الأحياء الألماني ارنست هايكل، بالرغم من أن هنري ديفيد ثورو عرفها منذ 1852 ، ويبدو أنه استعملها لأول مرة بالفرنسية سنة 1874، في كتابه التشكيل العام للكائنات الحية، حيث هايكل ذكر هذه المصطلحات. كان مفهوم البيئة موضع الاستعمال في فرنسا من طرف الجغرافيون لمدرسة علم الأحداث الجغرافية (الحقائق الجغرافية)، خصوصاً بول فيدال دو لابلاش (1845 - 1918) (Paul Vidal de La Blach)، الذي تابع عدا ذلك العمل الألماني خصوصاً بعد سنة 1871، لاسيما فرايدريك راتزل (Friedrich Ratzel)، كانت الوقائع (الأحداث الجغرافية) مقر تعاون بين الجغرافيين وعلماء النبات أمثال غاستون وبونيي (Gaston Bonnier)، لكن التوجيه الماركي الجديد المتخذ في فرنسا في ذلك الوقت تطور المفهوم أكثر عند الانغلو ساكسون.

تحدد البيئة بدقة موضوع الدراسة المشار أعلاه، هناك مجموعتان متميزة، منها تجمع الكائنات الحية (BIOTOP)، والمحيط الفيزيائي (BIOTOPE)، كلها تشكل النظام الإيكولوجي، تدرس البيئة تدفقات الطاقة والمادة (الشبكات الغذائية) التي

تتوزع في نظام بيئي، تشير البيئة إلى مجموعة متجانسة محلية تشير إلى عدة مفاهيم جزئية: غابة، مروج، بركة، مسكن محلي.

وفي سنة 1971، أصبحت الإيكولوجيا جزءاً أساسياً من السياسة العالمية، عندما شرعت اليونسكو (UNESCO) في برنامج بحث سمي بـ "الرجل والمحيط الحيوي" يهدف إلى توسيع المعرفة عن علاقة الإنسان بالطبيعة، وبعد سنوات تم تحديد مفهوم المحيط الحيوي، في سنة 1972، عقدت الأمم المتحدة أول مؤتمر للبيئة والإنسان في ستوكهولم، حضره رني ديبو مع خبراء آخرين، تولد عن هذا المؤتمر عبارة تفيد "فكر عامياً واعمل محلياً". ساهمت هذه الأحداث الأساسية التالية في تطوير مفهوم المحيط الحيوي و ظهور مصطلح التنوع البيولوجي في الثمانينيات، هذا المصطلح طور في "قمة الأرض" في ريو دي جانيرو سنة 1992، فقد عرف المحيط الحيوي رسمياً من طرف أكبر المنظمات الدولية و فيها عرف مخاطر الاستخفاف بالتنوع البيئي. في سنة 1997، اعترف دولياً بخطر الأنشطة الإنسانية على المحيط خاصة الغلاف الجوي، أسفر هذا المؤتمر عن بروتوكول "كيوتو"، وقد سلط الضوء على أخطار الغازات في الاحتباس الحراري، فهو السبب الرئيسي لتغيير المناخ، في "كيوتو" تيقنت معظم أمم العالم أهمية النظر إلى البيئة بنظرة موحدة أو على نطاق عالمي، وأن تتنظر في تأثير النشاطات السياسية على بيئة هذا الكوكب. حققت التوجيهات الإيكولوجية تأثيراً يتجاوز العلوم المتعلقة بالبيولوجيا، بحيث تركت أثراً عميقاً وكبيراً على جغرافية الإنسان وإستمولوجية الطب ونفسية البناء، فقط تولدت الكثير من الحركات القائمة على أساس حماية البيئة من هذه الممارسات المجحفة بحق البيئة.

ثانياً: البيئة، المنظور والمشكلات

عندما نتناول كل مجلة غير متخصصة إشكالية "البيئة"، كمفهوم مركزي، فهي توضح نقطتين أساسيتين: الأولى؛ أن هذا الحقل البحثي لا يشكل في البحث العلمي، موضوع انتماء علمي حصري، لكنه يشكل موضوع معالجة في عدة اختصاصات. والثانية؛ أن الحقل البحثي هذا يأخذ معناه، ضمن عملية تجذير اجتماعي، تتطلب مساهمة مختلف الجماعات حيث تشير هنا إلى نوعين اثنين منها؛ فمنها ما يعتبر داخلياً للوسط العلمي أو خارجياً عنه، تتحدر الجماعات الأولى من المجتمع العلمي وتتفاعل في معالجة إشكالية

البيئة كخبراء، تحتل هذه الجماعة مكانة متزايدة في إعداد الإشكاليات*، ولا يمكن أن تطبع فقط بمواقف تعود إلى المنطق أو المنهج، بقدر ما تقضي مثل هذه الرؤية على الاعتبارات التاريخية بفعل تطورها وممارساتها الخاصة (رواني و زرقون.2006)، أما الثانية التي عادة ما ينظر لها "كتظاهرات" أو متظاهرين من طرف أولئك الذين يعيشون المشكلات البيئية، وعادة ما يطلق عليهم جماعات الضغط، فهم يحاولون أن يجيبوا، عن ذلك بأنهم يقومون بردة فعل إزاء عالم الخبرة والحرفية التي تطبع المجموعات الأولى من أجل قطع الثنائية المركزية التي تميز مجتمعاتنا: بين أولئك الذين يعرفون ويفرضون معرفتهم وأولئك الذين ليس بمقدورهم سوى أن يتأثروا بها.

لكن أكثر من تكون مجرد جواب، تقع "ردة الفعل" هذه في إطار عملية تفاعلية ومتراصة، تستهدف من جهة التأثير في عملية إعداد الإشكاليات البيئية ومن جهة ثانية امتلاك هذه الخبرة العلمية التي تحدد وتتكفل، في هذا التنوع من وجهات النظر (العلمية والحس المشترك)، يبرز ما يعطي طابع التشابك والتعقيد للإشكاليات البيئية، بما يجرنا إلى الاعتراف بأهمية "الدور الأولي للذات العارفة، في فعل بناء المعرفة" (الشيخ.2002: 29)، يسمح هذا الاعتراف بدور الأفراد، بالانتقال من فكرة السكان الذين يعرفون كمجموعة أفراد ويمثلهم الفرد المتوسط إلى منظور الاعتراف بالجماعة، بوصفها مجموعة بشرية اجتماعية وتاريخية.

تتخذ هذه الإطلالة بين ثنايا التراث السوسيولوجي، من مفهوم البيئة كنقطة إرساء، ترمز إذن إلى أن المنظور البيئي ينطبع بما يلي:

- غياب اتفاق حول طبيعة المشكلات (المفهمة النسقية).

- توجد لدينا مقاربات تفسيرية ومفهومية متعددة الأبعاد (على سبيل المثال: المشكلات الكونية يمكن وضعها في تفاعلها على مستوى البشرية والمشكلات المحلية مع جماعات تتطور على المستوى المحلي) والمتعددة العقلانية (منطقيات استقرائية، استنباطية، نسقية،

*- نميز هنا، بين إشكالية التي تتعلق بموضوع معين، تتشكل من جملة من الفرضيات الوصفية بشأن وضعية قابلة للاكتمال سياقية (contextualisation)، حول مشكلة تتعلق بموضوع البحث ذاته، وتتطلب تلك الوضعية اتخاذ قرار، وهي هنا البيئية.

روحية...)، في الأخير، زيادة على هذه التردد الوجودي، النظري والمنهجي، تضاف القيم والمعتقدات التي تجبرنا على تبني سياقية راهنية، أي تسجيلها في الزمان والمكان،

في ضوء ما سبق، يبدو لنا إذن، أنّ التجذير الاجتماعي سيحظى بأهمية أولى، عندما يتعلق الأمر بوصف وتفسير الإشكالية البيئية علميا، وبخاصة عندما تأخذ هذه الأخيرة، أصالتها في فكرة الخطورة أو المخاطرة، التهديد - سواء بشأن الصحة أو نجاة البشرية، الكوكب...- (Jollivet.1993: 6-20)، وفي لحظة ثانية، بواسطة تشابك الاعتراف بالإشكاليات البيئية (تنوع التقارير المتوفرة بين الأفراد وبين الأفراد وبيئتهم)، يعني الاعتراف بالفعل، أي بالعمليات التي تتم من قبل الأفراد، لتلبية حاجاتهم، رغباتهم أو إرادتهم في لحظة بعينها في بيئة محددة، وأخيرا، يسمح هذا المنظور التحليلي انطلاقا من "علاقة مع"، بالتوصل إلى بعد آخر، لأن أية علاقة هي دوما منتوج وصف مزدوج، ولتسهيل الفهم، فإنّ باتيسون (BATESON) يعطي كمثال على ذلك، حالة الرؤية الثنائية بمنظارين (BINOCULAIRE) التي تسمح بالنظر المتعمق (Bateson.1979).

ثالثا: البيئة، فعل وتدخل

إنّ التدخل في إطار إشكالية بيئية، يجبرنا إذن على اعتبار عمليات البناء (عند مختلف الفاعلين)، النشطة والمنظمة في مجملها، أي الاهتمام بالثروات، العواقب والسرمان، وغياب أحد هذه الأبعاد، يجعلنا نفتقد معنى البعدين الآخرين، لكي نتمكن من الإلمام بهذه العمليات، فإنّنا نستهدف التعرف على العلاقة التي يبينها الأفراد مع بيئتهم، ونتحاشى تناول موضوع "تطبيعي" أو مهجن أو مروض، أي معطى على أساس أنّه واقع وثابت، ننطلق إذن، من المصادرة التي تفيد أنّه أثناء التفاعل بين الذات (الملاحظ العلمي أم لا) والموضوع (إشكالية بيئية)، ينشأ واقع الأشياء، هذا الواقع يمكنه إذن، أن يصبح "تاريخيا وبشريا للطبيعة" لا يستبعد على الأقل التدخلات والتغيرات التي يحدثها الإنسان (النشاط الأنثروبولوجي) مفهوما (Moscovici.1968)، لكنه يدمجها ويعتبر الإنسان-الفاعل، كفاعل وذات طبيعته.

باختصار، ومن هذه الزاوية التفاعلية البيئية، تتكون كل إشكالية بيئية من جهة، من العناية التي يوليها الأفراد (ملاحظون علميون أم لا) بالموضوع (إشكالية بيئية) ومن جهة أخرى، من الجانب "الدال" الذي يبني (الفاعل الذي يعمل عن طريق جماعته) بإعطاء

معاني إلى هذا الموضوع ذاته، للإشارة، فإنّ الأمر لا يتعلق عندنا، بمساءلة الوجود أو واقع المشاريع الاقتصادية أو البيئية، لكن ملاحظة وتتبع عملية البناء الاجتماعي، لهذا الواقع أو "وضعته" (OBJECTIVATION)، وعن طريق هذا المنظور، يتحول الباحث الأنثربولوجي إلى لاعب، أي أنّ هذا المنظور النظري يعطيه إمكانية أن يتموقع.

باستهداف نسق العلاقات، يصبح التدخل عملية تدريب، تعطي الفاعلين صلاحية تسيير واتخاذ مواقف، في مواجهة الأخطار، بدلا من كونها عملية معيارية، تستهدف القضاء على مشكلة مادية عن طريق الخبر الخارجي، عن طريق هذه المكانة أو المركز ذي الأهمية القصوى الذي يمنح للأفراد، يمكن أن نساعدهم على ترقية ثقّتهم في أنفسهم، من أجل التوصل إلى حلول تخصهم، وفي نهاية المطاف، تقليص تبعيتهم إزاء هذا المتدخل الخبير، من زاوية نظر أخلاقية، يمكن أن يسهم هذا الموقف في الحد من ظواهر التلاعب والمناورة، لأنّ الأفراد يشكلون جزء لا يتجزأ وأنّ الإشكالية البيئية لم تعد معطى، بل هي مبنية في هذا الإطار وتصبح الإشكالية البيئية نسقا مفتوحا يحدد فيه الفاعلون أنفسهم، انطلاقا من حاجاتهم، رغباتهم وإرادتهم في لحظة زمنية محددة وفي سياق بعينه.

تتماشى هذه الكيفية في تناول هذا الموضوع، مع زحزحة تنتقل من نموذج ميكانيكي، يستهدف مشاركة عادية ومتجددة (عبر تأويل خبير خارجي، يوظف المراحل الكلاسيكية للتعرف على الأخطار، يقدّرها ويراقبها) إلى نموذج "عضوي"، يستهدف مشاركة توافقية أو اجماعية وتملك المعارف الجديدة، بما يضاعف من التأثير الذي يقوم به الفاعلون في كافة مراحل البحث (Blin.1997)، النموذج الأول؛ يشبه نموذج تحري معقد بواسطة استخدام منهجية علمية وتأكيدات صادرة من متحررين آخرين، يكتشفون ويستنتجون واقع الفاعل، وهي عملية يمكنها أن تؤوّل إلى وضعية تبعية: نطلب من الفاعل أن يخرط في مشروع، وبالمقابل، فإنّ النموذج العضوي، يعمل على أنّ الفرد الذي يتدخل ويرتبط بعملية توليد المعطيات (الملاحظة)، التحليلات والاستنتاجات التي تترتب عن تلك الملاحظات (التأويلات) والتحقق الذي يتم بالإجماع المتبادل، بحيث يخرط الفاعل في بناء المشروع.

رابعاً. البعد الثقافي لعلاقة الإنسان بالبيئة

لا تتبني العلاقات الاجتماعية في الفراغ الاجتماعي، بل أنها تتأصل في موجود سابق، أي في سياق اجتماعي-ثقافي وتاريخي. هكذا، يعتبر العلاقات الاجتماعية التاريخ -إعادة بناء الماضي، أي الذاكرة الجماعية- كقاعدة خلفية من المعارف المشتركة التي تسمح لأعضائها بتأويل والتكيف مع المعطيات التي يلاقونها في مسيرة حياتهم اليومية، كما في البيئة المادية، الاجتماعية والذهنية" (Haas & Jodelet. 1999: 111-140)، وبشكل عام، فإنّ الرابطة بين الثقافة والتمثيلات الاجتماعية هي التي تذكر في الغالب، تكون هذه الرابطة أكثر من سببية خطية بسيطة. هكذا، يمكننا أن نوظف الثقافة كإطار ترجمة، وإطار رمزي ومادي لنشر السلوكيات، وكعناصر بنية العلاقات مع العالم (Jodelet.2006: 219-239)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ العلاقة التي يقيمها الإنسان مع الطبيعة هي علاقة تتموقع تاريخياً وثقافياً (Descola.2005)، وهنا لا يمكن الحديث عن تناول هذا التطور برمته، شأن علاقتنا مع الطبيعة، لكن على الأقل، يمكننا أن نؤكد على بعض العناصر التي تستأهل أن نشير إليها، عبر صيرورة تاريخية محددة.

1. العصر الوسيط: حقبة عصر الأنوار

في نهاية العصر الوسيط، ساهمت فلسفة الأنوار في خلع ثوب القداسة عن الطبيعة، بواسطة نشر فكرة أنّ مبادئها تخضع لنواميس رياضية وفيزيائية، يمكن، بل يجب على الإنسان أن يكتشفها، وعندئذ فقد أصبح العلم هو تقنية استغلال هذه الآلة الطبيعية (Lenoble.1969)، يطالب الإنسان هكذا، بوجود الروح لنفسه بمفرده، وعليه، يتمركز الإنسان بوصفه "سيدا ومالكا للطبيعة"، لتبسيط ذلك، نقول أنّ العلاقة بين الإنسان والطبيعة، قد اعتبرت بكيفية أنثروبومركزية أنّ الطبيعة هي في خدمة الإنسان، فهو الذي يتحكم فيها وهو خارجي عنها، ومع نظرية شارل داروين التي تضافرت مع تطور الإيكولوجيا بوصفها تخصصاً علمياً، فقد أعيد النظر في هذه العلاقة، حيث أصبح الإنسان أحد الحلقات في صيرورة التطور، وصار بذلك، جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة، يسهم في بعض الأنساق الإيكولوجية، كبعض الأنواع الأخرى، وبناء على ذلك، صارت تلك العلاقة إيكولوجية ممرزة، ويشهد تزايد المعاهدات الدولية، بشأن البيئة عل تغيير في تمثل العلاقة

مع الطبيعة (Franck.1997: 409-435)، يدفع بنا مفهوم النسق الإيكولوجي إلى تناول الكوكب كنسق تجب حمايته بكيفية شاملة، لكن هاتان الرؤيتان عن العلاقة "الإنسان- الطبيعة" (الأنثروبومركزية والإيكومركزية) تتعايشان اليوم أيضاً، عند العامة.

وبكيفية موازية، فإنّ العلم الذي كان ينتظر منه، أن يتحكم في الطبيعة، قد خيب ظننا فيه، واليوم فإننا نقيم معه علاقة ملتبسة، لأننا نستتكر المخاطر التي يخلقها العلم، وفي الوقت ذاته، فهو يظل الحل الوحيد للقضاء على تلك الأخطار، في سنوات السبعينات، وضعت الأزمة الإيكولوجية حدا للحلم التكنوقراطي (Beck.2003)، وصارت الطبيعة، جهازا داخليا ويشكل تخريبه جزء لا يتجزأ من الديناميكية الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية. ويعتبر التلوث أحد أعراض هذه الأزمة الإيكولوجية، حسب تقدير ألريخ بيك (Beck)، فإنّ مفهوم "التقدم" (Progès) يقدم بعض الإنارة عن الأزمة الإيكولوجية فقد صارت أحد التحديات التقنية في المستقبل التي لا يمكن تلافيها، هكذا تعتبر المشكلات الإيكولوجية، "كعائق أو كاضطراب" في تنمية مجتمعاتنا (Baëta . 2000:223-236)، وهو ما يجعل منها نوعا من الإعاقة في وجه التقدم، أصبحت الرابطة بين الإيكولوجيا والاقتصاد اليوم عند مختلف المنظرين محل نقاش، ويعتقد جوسن (JOUSSEN)، أنّ هناك رابطة بين تنمية المجتمعات الاستهلاكية والأزمة الإيكولوجية، إنّ ما يطبع هذا المجتمع، حسب رأيه، هو نسقه القيمي الذي لا يعطي فيه العمل أي معنا للحياة، فهو يعطي المال من أجل الاستهلاك، مما يجعل من الاستهلاك تطبعا، توجد عدة نماذج من الاستهلاك، تترتب عنها عواقب مختلفة على البيئة، لكنها جميعا تخلف أثارا سلبية، أما بوارول (BOIRAL)، فهو يتناول العلاقة بين الإيكولوجيا والاقتصاد، في عالم المؤسسة (Boiral.2004:1-8)، إنّ الفرضيتان: فرضية الإنتاج بكيفية إيكولوجية أكثر (WIN-WIN) هي أكثر اقتصادا، وفرضية الإنتاج بكيفية أكثر إيكولوجية، يخسر المال (WIN-LOOSE)، اللتان تطبعان العلاقة بين الإيكولوجيا والاقتصاد، ليستا متعارضتين في الحقيقة، بل أنهما تسمحان، بأن نأخذ في الحسبان، مختلف جوانب الواقع نفسه، هكذا فإنّ فكرة تطبيق مناهج الإنتاج الأقل تكلفة، من حيث الطاقة إيجابيا على المدى البعيد على المؤسسة، ليست علاقة وثيقة.

لكن، يبدو لنا من المهم أن نوظف هنا التمييز الذي يقترحه هيرماس (HABERMAS) الذي يفرق فيه بين عالمين اثنين:

- العالم النسقي الذي هو عالم السلطة، المال لا يمر عبر اللغة، لكن عن طريق الإكراه الصامت.

- العالم المعاش الذي يمر عبر اللغة ويتعلق بالفن، العلم، القانون والأخلاق (Habermas.1987)

وبطبيعة الحال، فإنّ هذان العالمان يتعايشان في خطاب وممارسات الأفراد، وأحدهما كما الآخر، ضروريان من أجل حياة الإنسان، لنأخذ على سبيل المثال النقود: فهي تسمح لنا بتخليص النشاط البشري من النشاط اللغوي الدائم، لكن هذان العالمان يحاول أن يتسرب ويتغلغل أحدهما في الآخر على سبيل المثال، توجد النقود في كافة التعاملات، ومن بينها تعاملات الأسرة أو الفن، نلاحظ إذن، نوعاً من النزاع بين عالمين، يحاول كل منهما أن يتغلب على الآخر، ففيما يهمننا هذا الأمر؟ يتضح هذا التوتر القائم بين العالم المعاش والعالم النسقي من بين ما يتضح في النزاع بين الإيكولوجيا (كعلم، لكن أيضاً كسياسة) ومنطق السوق، أي بين الإيكولوجيا والاقتصاد، يتلقى الأفراد إذن رسائل وإشارات متعارضة، من جهة يجب عليهم أن يحافظوا على الطبيعة، ومن جهة أخرى فهم مدفوعون إلى الاستهلاك، مما يضمن العافية الاقتصادية للبلاد، ويتواجد هذا النزاع الداخلي في المجتمع، في الأسلوب الذي يتمثل به الأفراد الإيكولوجيا والثقافة، هكذا نشير إلى التباين في عملية النقل؛ تنتقل الإيكولوجيا بواسطة اللغة، بينما تفرض المعايير الاقتصادية نفسها بواسطة الإكراه الصامت.

ومن هنا، تسمح لنا هذه الملاحظات أن نؤصل تساؤلنا حول الرابطة بين التمثلات الاجتماعية والممارسات الإيكولوجية، في سياقها، وصياغة فرضيات تخص معنى التباين أو الفجوة بين الخطاب والممارسات عبر الكشف عن أوجه التعارض بين الإيكولوجيا والاقتصاد، لذلك فإننا نطرح على أنفسنا الأسئلة التالية: في السياق الذي تتعارض فيه الإيكولوجيا مع الاقتصاد والتكنولوجيا، كيف يمكننا أن نبني وننظم العلاقات الاجتماعية بشأن ظاهرة التلوث؟ ما هي الإنارة التي يقدمها ذلك على المعاني التي نمنحها للممارسات الإيكولوجية؟ وما هو دور مختلف العلاقات الراهنة والماضية مع الطبيعة؟

خامسا. الجزائر وقضايا البيئة

1. الاستعمار وتأثيره في البيئة

أولا. إنّ قرار التدخل الفرنسي في الجزائر يتموضع في سياق سياسة التخويف واحترام عنف مؤسسة الدولة المتمثلة في الجيش، تقدم بعثة الجيش أنها ستستعيد إنجازات بونابارت (BONAPARTE)، هذه الحملة التي انطلقت يوم 14 جوان في سيدي فرج وانتهت باستسلام داي الجزائر يوم 5 جويلية 1830، لم تكن حملة فسحة، لقد اكتشف العساكر أجساد رفاقهم المشوهة التي تنقصها الرأس، إنّ لم تكن الأرجل والأذرع، منذ تلك اللحظة زال الخيال الذي تمثل في أنّ الفرنسيين يحاربون الأتراك من أجل إعادة الحرية للعرب، فقد كتب كامي روسي (CAMILLE ROUSSET): إنه مشهد بائس... للقوات الفرنسية التي اغتازت من عنف أعداءها، فأصبح كل أهلي يمثل عدوا، كل بيت هو ملجأ لعدو (Camille.1879:185-186).

هذه الحرب لم تكن توطئها اتفاقيات كما جرت العادة في أوروبا، لم يتم مواجهة جيش، لكن سكان يشكل كل مهزوم منهم غنيمة في قبضة المنتصر، بأمواله وحياته، ويتعلق بمواجهة عامة، وتظاهرة عدائية دفينّة، تنتهي في حالة انتصار الأهالي، بالتصعيد الأقصى ألا وهو الإبادة، هكذا تقرر أن الفتح لن يتم سوى بالقهر، بالتجوع أو الإبادة، كما تشهد على ذلك سجلات ووثائق ضباط تم الحصول عليها من مراسلاتهم أثناء 15 سنة التي عقت الإنزال؛ "لقد قمنا بملاحقات طويلة لإحراق، نهب وإبادة القبائل الموجودة بين البلدة وشلف وضواحي شرشال، رغم أنّ الترويع، فإنّ الغاية الأخيرة التي هي التهدة بعيدة المنال" (Campagnes d'Afrique. 1988: 11)، أما في رسالة أخرى، فقد جاء ما يلي: "إنّ فريقنا كانت مهمته هي تهديم كل شي في طريقه، بالفعل، لقد حططنا الكثير: قرى بكاملها، قرى حقيقية كبيرة زالت بالحريق وعدة آلاف من أشجار التين والزيتون تم قطعها" (Campagnes d'Afrique. 1988: p11).

وأثناء هذه السنة الرهيبة 1845 على السكان الجزائريين يوم 19 جوان، وقعت الحادثة المشهودة في مغارة الظهرة التي أشعل النار أمامها العقيد بيليسييه (PELISSIER) وقضى على قبيلة من حوالي 500 فرد لجؤوا إليها، وتقبل مسؤولية ذلك المارشال بيجو (MARECHAL BUGEAUD) ردا على مساءلة أمام غرفة النواب: "قبل السياسة،

التمدين والاستعمار يجب أن يتقبل السكان قانوننا، هناك ألف مثال، يدل على أنهم لا يقبلوننا سوى بالقوة، وأنّ هذه الأخيرة عاجزة، إذا لم تستهدف الأشخاص والمصالح، بواسطة سياسة إنسانية صارمة، سنخلد حرب إفريقية، في نظر الجنرال لاموريسيير (DE LAMORICIERE) تكسير المقاومة العربية، هي مرحلة، ويجب الذهاب بعيدا: "بين الفتح والاحتلال الفعلي، لا يشكل خضوع العرب، سوى مرحلة انتقالية ضرورية، إنّ سكان أوروبيين مسيحيين فقط، يمكنهم أن يسمحوا لنا بأمل أن نبقى في الجزائر" (Camille.1889: 24-25).

هكذا، منذ بداية الاستعمار وصولا إلى برامج التنمية في الجزائر المستقلة، فإنّ السكان، الملكية العقارية، نمط الحياة، أنظمة الإنتاج، الخلية الأسرية والفضاء، كمحل للسكان والثروة الأولية، قد عرفت تحولات عميقة إلى درجة أن البلاد قد تحولت رأسا على عقب، إنّ العلاقة مع الأرض وعناصرها الأساسية (مرتفعات، جداول، مزارع، مساحات عقارية، ثروات طبيعية) قد تحولت بالكامل، إنّ النظام الكولونيالي الذي طبق إستراتيجية تسييج السكان الأهالي، قد بنى مدنا جديدة، مصانع، شيد مدارس وهياكل خدمات، كما أسس نظام الخماسة (رق) حولت المزارعين الجزائريين إلى يد عاملة مسخرة وخاضعة تحت رحمته، داخل المدن الأوروبية الحديثة ذاتها في الجزائر، فإنّ جيوب البؤس الأهلية قد تم خنقها في الأحياء المسماة "عربية"، فبين باب جديد، ساحة بريسون (SQUARE BRESSON)، ثانوية بيجو (BUGEAUD) الأمير عبد القادر حاليا، يحاصر سكان القصبة، ويكون الشيء نفسه بالنسبة للتجمعات السكانية الأخرى في الجزائر.

ومن أجل عمل المزارع والورشات التي يديرها الأوروبيون، فقد تمت الاستعانة بالعمال، من داخل البلاد الجبلية والهضاب العليا، ويتذكر أجدادنا اليوم، حملات ومواسم جني العنب في بوفاريك، دلس والبرواغية التي تجند خلالها الريفيين الشباب الذين يرتدون ملابس رثة من الأربعاء ناثيراثن، قصر البوخاري، عين بوسيف وسيدي عيسى، إنّ حوض وسهول المتيجة كان يخدمها، هذا الجيش الاحتياطي الذي نجا من الحروب وهجمات الأوبئة، أعمال فصلية أو مؤقتة (جني البرتقال، البطاطا، العنب) هي أشغال تتطلب حضورا دؤوبا (الري، الحرث، تشذيب الأشجار) أو وظائف دائمة (آلات زراعية، بناء، حراسة) أو الإتيان بآلاف الأشخاص المعوزين من الريف، نحو السهول الخصيبة،

قريبا من المدن الكبيرة، وهكذا يتحول مركز الشخص الشاب العازب ويستبدل بعد فترة وجيزة بمركز رب الأسرة.

وهكذا، انتقلت الآلاف من الأسر خلال القرن العشرين، خالقة بذلك ظاهرة هجرة ريفية واسعة، وفي محل الوصول، لا يكتثر السكان بالخدمات الصحية أو بأدوات الرفاهية، يتم بناء بيوت من صفائح القصدير، أكواخ من طوب أو آجر، دون خدمة صحية ولا فضاء يكفي، ستشكل أحزمة البؤس حول القرى الكولونيالية (بوفاريك، بير توتة، عين تيموشنت، سكيكدة...). هذه الوضعية ستدوم بعد الاستقلال.

كما لا تفوتنا الإشارة إلى التفجيرات النووية في الجنوب الجزائري، عمليات حرق الغابات واقتطاع الأشجار المثمرة، وتطبيق سياسة فلاحية كثيفة وغريبة (العنب).

2. الجزائر والبيئة زمن الاستقلال والتنمية

تعطي مؤسساتنا الوطنية الانطباع، بأنها تستفيق لأهمية المعطى البيئي في بلادنا، لكن الطابع الفولكلوري والبروتوكولي من هذه العمليات، يحظى بالأسبقية مقارنة بالبرامج الكبيرة التي يمكنها أن تقدم حولا لوضعية بدأت تفوق حدود التحمل، ويبدو أن تشخيص المسألة رهيب، تتعرض الجزائر يوميا للأوبئة والظواهر المتولدة جراء عواقب المساس والاعتداء على البيئة، حتى في أعين ملاحظ ساذج، فإنّ مختلف الاعتداءات على البيئة وإطار حياة الجزائريين، لم يعد يشكل سرا، إنها واضحة المعالم، سواء في الأحياء الحضرية الراقية، في المراكز المحاذية للمناطق الصناعية وللأسف في فضاءات البلاد الداخلية التي كانت تعتبر في السابق آخر قلاع نقاء الماء، الهواء والمنظر.

لقد عرف فضاء هذه الطبيعة العذراء انزلاقا صوب الجحيم في الوقت الذي شهدت فيه القيم الأخلاقية والمدنية والضبط العام ارتكاسا مقيتا، فصناعاتنا (الإسمنت) تثير اللغط بشأنها، رغم مساهمتها في برامج إنجاز السكنات، إنّ ما شكل دوما معضلة للصحة العمومية -انبعاثات الأتربة منها- قد حظي بمعالجة "سياسية" غير بريئة، على سبيل المثال، فإنّ مجموعة من برلمانيي بعض أحزاب التآلف الرئاسي، قد قرأت تصريحاً جعل منهم "المتحدثين باسم" أو وكلاء عن المواطنين الذين يهددون كل مرة، بالنزول إلى الشارع للفت انتباه السلطات العمومية، بشأن الخطر الذي تمثله مثل هذه الصناعات على

السكان، كما يوضح المشتركون في عريضة، بأنّ المصفيات الكهربائية لا تقوم بدورها وأنّ قرابة 150.000 شخص مصابون بأمراض تولدها هذا التلوث، بدرجات متباينة، وزيادة على ذلك، فإنّ المفجرات المستخدمة فيها لاستخراج المواد الأولية، تسببت في عدة تشققات البيوت، والمطلوب أن ينتقل المختصون في الصحة العامة والبيئة إلى عين المكان، من أجل تشخيص كامل وموضوعي.

على كل، فإنّ النظرة البانورامية لمدينة الجزائر العاصمة، انطلاقا من بلديات تابلط، تعطينا نظرة عن حركة ومسار هذه الأتربة، التراب الرمادي الذي قد يعتقد أنّه دخان متصاعد من مزبلة ما أو من أحراش احترقت، ليس في الحقيقة سوى مقذوفات أبدية، من مصنع الإسمنت بمدينة مفتاح، وبفعل انتشاره في مهب الرياح، فقد أصبحت بمثابة جهاز قياس سرعة الرياح وتعيين اتجاهها، وعند وصول الرياح الجنوبية الشرقية الحارة (SIROCO)، فإنّ أكوام دخان مصنع مفتاح التي تكثف من حجم دخان المزبلة القديمة في وادي سمار، حيث يحترق معمل ضخّم معالجة القاذورات، منذ أكثر من عقدين اثنين، والنتيجة كانت دون ريب، هي أن أكبر مرتع للمياه الآسنة في الجزائر وهو وادي الحراش الذي يستعرض بطنه المفتوحة التي تنبعث منها الروائح الأكثر نتانة التي نعرفها.

1- وعي بيئي متخلف

خلال السنوات الأخيرة، يطرح مواطنون ومسؤولون غالبا، مسألة معرفة لماذا وكيف تتكاثر حالات انهيار وانجراف الأتربة في أراضي معروفة بصلابتها وتجزرها، حالات أمراض معدية، تأخذ صورة شبه أوبئة مميتة أو أمراض حساسية، تمس الأطفال والراشدين، يمكننا أن نسترسل في طرح التساؤلات للتعرف عن أسباب نقص قدرات التخزين في سدودنا وعودة بعض الأمراض، مثل: الجرب، الطاعون الدبلي (PESTE BUBONIQUE) أو السل الذي لا نجد له أثرا، سوى في الذاكرة الشعبية أثناء السنوات السوداء من البؤس والاستعمار، وبوصفها بلدا يسير في طور النمو، تمتلك فرصة -أو سوء حظ- أنها تتوفر على موارد غازية وبترولية معتبرة، فقد استثمرت الجزائر، بشكل إرادي وشعوبية لاقياسية، في بناء القاعدة الصناعية والتحضير إلى درجة أن صورة البلاد -بانوراما طبيعية، نسيج حضري، وتيرة الحياة- قد اختلت في ظرف أربعة عقود، وترتب على ذلك، خلافا للدول الصناعية، أنّ المعايير البيئية لم يتم الاعتراف بها، سوى

أثناء العشريّات الأخيرة، وأكثر من ذلك، فقد جرى ذلك عقب شروط مرافقة، في بعض برامج التنمية التي مولت من قبل المؤسسات الأجنبية منها منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة، منظمة الصحة العالمية، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (PNUD, BIRD, FAO)، من المفضل ولو بشكل متأخر، فإنّ هذه الاختبارات قد بدأت تؤتي أكلها، بتبني بيداغوجية ملائمة في تركيب المشروعات، بما فيها تلك التي تسيّرهما المقاولات الخاصة، وأصبح من الواجب أكثر من أي وقت مضى، مرافقة أي نشاط اقتصادي بالمتغيرات البيئية بهدف الحد من المخلفات "الثانوية" لكل نشاط اقتصادي، قد تفرزها برامج التنمية، على أية حال، بالنسبة لغالبية الممولين الكبار، فإنّ الحساسية إزاء الجانب الإيكولوجي للتنمية، يشكل جزءا من تكلفة المشروعات التي يجب أن تسجل في جدول التكلفة، كخانة تولد عبئا تجاريا غير قابل للانضغاط.

2- الحراك السكاني والهجرة الريفية

وأكثر من ذلك، رغم الوعود التي حملتها الثورة الجزائرية التي تتمثل في القضاء على مركز الخماسة وإعادة الاعتبار للفلاح الجزائري، فإنّ "نزوات" أخرى ستعرف النور بفعل عملية تهجير فعلي، فقد تم الحط من مركز الفلاح، بالنظر إلى تاريخه الذي لا يشرف كثيرا أثناء الاستعمار، وتبع ذلك عملية وظفت (FONCTIONNARISATION) لا تتوقف تستهدف القضاء على مركب النقص، إزاء القوة الاستعمارية السابقة، وجراء ذلك، محاولة إعادة إنتاج مخططات التنظيم والترقية الاجتماعية، هذا النموذج من "الاستقرار" والتنشيط قد أدى إلى تدفق فيالق أخرى من العاطلين عن العمل والفلاحين، من الأرياف التي قررت الاستقرار في المدن، بقطع الحبل السري مع مهدها وبيئتها، وتولدت إذ ذاك حاجات جديدة، في مثل هذا الواقع الذي فرض نفسه: المدرسة للأولاد، العيادات الصحية، الربط بشبكات المياه، الغاز والكهرباء، النظافة... بطريقة أو بأخرى، من أجل ضبط عملية تحضر فوضوية، بشكل مبطن. وسيتقوى ذلك، مع فتح شبكات طرقات جديدة وسبل تقديم الخدمات، بناء محلات تمويل وأحيانا مقرات إدارية بلدية، وفي ميدان العمل، يشغل الناس في كل شيء، عدا الفلاحة: الوظيفة، النقل السري، ورشات ميكانيكا صغيرة، حوانيت، بيع منتجات في الطريق، وليس سوى بعد منتصف سنوات 1980 أين بدأت البطالة، الانحراف المراهق، اللصوصية، المتاجرة بالمخدرات ونماذج من السلوك الأخرى المضادة اجتماعيا التي نشأت في هذه العشوائيات، تقلق بشكل صريح السلطات

العمومية وتثير اهتمام الأوساط المثقفة والجامعية، هذه الفضاءات التي كانت في السابق، مواقع إنتاج زراعي رغم التمييز الأجرى وساسة الأهلية، قد تم تحويلها بسرعة إلى فضاءات خرسانية، إلى بؤر مياه آسنة كبيرة من المياه العكرة وبيئات الانحراف التي يستقوى فيها التطرف الديني.

3- التحولات الجذرية وبداية العصر الريعي

الانطلاقات الحديثة للسكان أفرزت معها لامبالاة السلطات المحلية، إزاء عمليات التنمية، فقد ظلت العديد من المسارات غير ممهدة بالخرسانة، على مدى أكثر من 30 سنة، الطرقات المفتوحة القديمة بواسطة الهندسة العسكرية الفرنسية، لمتطلبات الحرب والتي خدمت الدواوير والقرى قد عرفت اهتراءات كبيرة، التخلف في عملية مد خطوط الكهرباء، الماء الشروب، التنظيف والربط الهاتفي، لا تشجع السكان القدامى على العودة إلى مواطنهم، والسبب الرئيسي أنه لا أية سياسة تشغيل في الوسط الريفي تقوم على الفلاحة، تربية المواشي والعمل الحرفي، تم القيام بها، الربيع النفطي الذي بدأت آثاره تحس بها في سنوات 1970، يمكنها أن تغطي كافة أشكال الكسل، سمحت هذه الثروة داخل التراب الجزائري، بأنماط من التيه والهيام والشطط! حتى في القرى الاشتراكية الفلاحية القديمة، أصبح النشاط الفلاحي عملة نادرة: فقد انهمك الناس في العمل الموازي، النقل السري والوظيفة العامة، إن ذلك هو بمثابة فشل حقيقي، ومخطط" فتت المجتمع والاقتصاد، بشكل عام، وبما أن ذلك لا يكفي، فقد قلبت العشرية الأخيرة من القرن العشرين رأسا على عقب، الوضعية التي تشبه مرتعا جزائريا حقيقيا على أثر الفوضى الإسلامية التي يدين تناميها الأيديولوجي والدعوي كثيرا، حسب مصطفى الأشرف إلى اقتلاع وتهجير المجتمع الجزائري الذي خضع الهجرة الريفية والمشكلات الاجتماعية التي تتضخم جراء ذلك.

يترتب على ذلك، أن الطلب على السكن يتنامى ويتضافر مع منحنى متصاعد دون نهاية، زيادة على ذلك، يطبع الاختلال في التوزيع الديموجرافي الإقليم الوطني - المنطقة الساحلية أصبحت تحمل عبئا كبيرا، مقارنة بالهضاب العليا وفي جنوب البلاد- إضافة إلى الاستهلاك المفرط في الأراضي الزراعية لحاجات الخرسانة، تفرز على المدى المتوسط خطرا كبيرا على الإطار العام لحياة الجزائريين والبيئة المباشرة التي تعاني من كافة

أنواع التلوث و"ترييف الحواضر" (RURBANISATIONS) وهي "عبارة مستحدثة"، تخص بلدان العالم الثالث التي خضعت إلى ترييف مدنها)، وبذل أن تخصص السلطات والتقنيين الجزائريين جهودها في التفكير حول إطار الحياة بتحسين نوعية البناء، هندسة معمارية العمارات وتجميل الفضاءات الثانوية في أحيائنا، فقد انحسر دورها في إجراء العمليات الحسابية الأبدية بملايين الوحدات السكنية التي يجب تسليمها إلى عشرات الملايين من الطالبين، ويشكل ذلك دائرة جهنمية مفرغة لا يمكن ردمها سوى برؤية شاملة، عقلانية ومتناغمة للاقتصاد والبيئة.

4- تحديات ومقاربات رديئة

بالنظر إلى شساعة الغابات التي أحرقت خلال العشرين سنة الماضية، طرح علينا أحد الشيوخ من الجبل متكئا على عصاه هذا السؤال الذي يتضمن في ثناياه الجواب: "هل تعتقدون إنه إذا استمر الناس حتى الآن في التدفئة والطبخ بالحطب، فإنهم سيتركون تذهبها النيران مثلما هو الحال اليوم؟" الشيخ ليس مخطئا، فقاورة الغاز وغاز المدينة قد أنسى الناس هذه الطائف القديمة الأولية التي يمثلها الحطب، وعندما لم تسهم برامجا المدرسية والوسائل التحسبسية الأخرى للتعريف بالمزايا الأخرى والمنافع التي يقدمها النسيج الغابي، فليس بمقدورنا أن نطالب من المواطن البسيط أن يمتلك وعيا إيكولوجيا بواسطة مرسوم، إن أعراض تأثيرات التعرية الغابية لم تكن مرئية كما هي اليوم سوى في شتاء 2004/2005، الصحافة الجزائرية قد أثارت وقائع الفيضانات والانهيارات التي مست المدن والطرق في مختلف أرجاء البلاد، والطريق الوطني رقم 5 على مستوى مضيق الأخضرية قد تمت تعطيله العديد من المرات بفعل سقوط الكتل الصخرية الكبيرة التي تتحدر بسرعة كبيرة على أرضية خسرت اسمنتها الطبيعي، الغطاء النباتي، بعدما فقدت قدرتها في التحكم في سريان المياه، تحولت قدرة التربة في ترشيح المياه وامتصاصها إلى العدم، مما أدى إلى سيلان مياه كثيفة أفرزت فيضانات على مستوى المدن والقرى، هذه الظاهرة الأخيرة، قد ضاعف منها بالطبع البناءات الفوضوية على مقربة من المناطق القابلة للغرق بمحاذاة الجرف.

وقد كانت هذه الظاهرة عينها سببا في انسداد وتوحد السدود وما أدى على المدى الطويل إلى النقص بقوة من سعتها على الاحتفاظ بالمياه وه حال سد القصب الذي يمس ولايات

بورج بوعريريج والمسيلة، في هذا الصدد، لا يمكننا سوى الترحيب بروح التنقيب التي تحلت بها الوكالة الوطنية للسدود والمحولات التي قامت بإجراء دراسة حول حماية حوض المصب في سد الكدية أسردون (Acerdoune) الذي يمتد على قرابة 3000 كلم بين ولايات بجاية وبويرة) وهذا قبل انتهاء الأشغال في بناء هذا المعمار.

5- آفاق فذرة في إطار الحياة

ليس هو أدنى المفارقات ما يعتبر تحت سمائنا جنة للصفاء والإطار المثالي للحياة - ونعني بذلك البادية والمناطق الريفية- يعرض في الجزائر تحت الغطاء البشع للتلوث والقذارة، لنشخص عن قرب قرانا ومداشرنا، فقد تحولت إلى مراتع المياه الوسخة وأكوام من البقايا ليست قابلة للتحلل بيولوجيا، ولهذا، فإن التقنيين وأعضاء المجتمع المدني بدؤوا يقلقون عن المصير الذي سنعرفه نوعية الماء في السدود الأخيرة التي شيدتها الجزائر (تقصابات، كدية أسردون، بن هارون) بالنظر إلى الحجم الضخم من المياه المستخدمة التي تسكب من عشرات القرى المتواجدة في أحواضها المصببات على التوالي.

رغم تواضع العزاء - الذي هو محل نقاش- عن القدرات التصفية الذاتية للتربة، هذا الفلق لا يمكن تلافيه سوى ببناء محطات معالجة في منبع الماء، وزير الثروات المائية لم يفتأ أن يشير إلى هذه المسألة خلال زيارة الموقع، في مدننا، فإن أكوام القاذورات والنفايات بما فيها تلك التي تتجمع أمام المستشفيات، لم تعد تنثر أبدا غريزة الصحفيين إلى درجة أن المشهد أصبح جزءا من الديكور، السكان الذين توطنوا في محور واد سمار- مفتاح قد تم تسييجهم بمذبحتين: نفايات مصنع الإسمنت والدخان الأبدي للمزبلة قد قلصت الفضاء الموبوء الذي يجعل الحياة مستحيلة تحت هذا المستوى، عدد الأطفال المصابين بأمراض الحنجرة أو أمراض أخرى ترتبط بالبيئة الخبيثة يتزايد كل سنة، في مدينة سور الغزلان مصنعان ملوثان أحدهما للأسمنت والآخر مصنع المنظفات لا يفصلهما سوى ست أمتار من الطريق، النفايات التي تطلقها الأول والسوائل المزبدة التي يلقيها الثاني لم يتم بعد تقديرها بدراسات علمية للتعرف على درجة الخطورة، فهل يجب انتظار ما لا تحمد عقباه لكي يتم القيام بهذا التشخيص؟

6. القرن 21 سيكون إيكولوجيا أو لا يكون في الجزائر

لقد صدرت عدة قوانين ومراسيم في الجزائر تهدف إلى حماية البيئة من الإتلاف الذي سبب الإهمال، سواء كان ذلك الإهمال يصيب الحياة أو الصحة بخطر، فبالموازاة مع القانون الأساسي للبيئة والتي تنص على معاقبة إهمال بعض الأنواع من الحيوانات، جاء قانون الطب البيطري وحماية الصحة الحيوانية يهدف إلى وقاية الحيوان من الأمراض، لأن العناية بصحة الحيوان درء لخطر تلفه بسبب الإهمال، كما صدر قانون آخر يتعلق بمراقبة النباتات والمنتجات النباتية وغيرها من المواد التي تكون ناقلة لأجسام ضارة، حيث أوجب القانون على المستوردين للنبات والمنتجات والأجهزة النباتية استخراج رخصة إدارية تسمى رخصة الصحة النباتية للاستيراد، تسلمها إدارة الصحة النباتية المتمثلة في مديرية الفلاحة.

في ظل هذا الاهتمام المتزايد والتوجه الجديد سارعت الجزائر إلى عقد مؤتمرات وطنية ودولية، تمخضت عنها نتائج وتوصيات دفعت إلى تبني نشاطات لحماية البيئة، ومحاولة تحقيق التوازن البيئي بالمحافظة على مكونات البيئة بأعداد وكميات مناسبة على الرغم من نقصانها وتجدها المستمرين.

وفي سبيل تحقيق ذلك عمدت الحكومات في العشرية إلى التوسع في إعداد مخططاتها الوطنية التنموية وضبط السياسات والقوانين والمراسيم التي تعمل على حماية البيئة (السياسة البيئية) التي تسعى من خلالها إلى جبر الملوث على دفع قيمة الأضرار التي ألحقها بالبيئة والمجتمع بإدراج الآثار الخارجية ضمن تكاليف النشاط للحد من المشاكل البيئية والتوجه نحو تحقيق التنمية المستدامة. وبالرغم من وجود قوانين ومؤسسات لحماية البيئة في العديد من الدول — على رأسها الجزائر — إلا أنها تعاني من الشمول وعدم الوضوح كما تعاني المؤسسات الضعف وعدم الفاعلية.

في المقابل لقد بدأ الوعي بمشكلات البيئة في "الواقع"، من أجل تشييد ثقافة بيئية في كافة دول العالم وفي الجزائر، ويؤكد العديد من المكلفين بحماية البيئة والغابات، على هذه الحقائق، فقد أشار بعضهم إلى ضرورة: "أن تصبح البيئة قضية الجميع وليس وحسب قضية الخبراء وأصحاب القرار"، وللتذكير، فإن الجزائر قد تناولت هذه المشكلة بكل جدية، خاصة منذ إنشاء الحظائر الوطنية في سنوات 1980 تحديدا، والمثال الأكثر "دلالة"

على ذلك، يتمثل في الاتفاقية التي تم التوقيع عليها بين وزارتي البيئة والتربية الوطنية التي تتعلق بالتربية البيئية في الوسط المدرسي، تبدأ التربية البيئية بوصفها عملية تنشئة اجتماعية، في البيت وسط الأسرة، لكي تمتد بعد ذلك إلى المحيط الـ"خارجي"، ويبدو أن التحسيس بأهمية موضوعات الطبيعة، المناخ، التلوث والنظام البيئي "ضروري" لأطفالنا منذ نعومة أظافرهم حتى سن الرشد.

وفي هذه الصدد، يمكن أن تضطلع الحظائر الوطنية العديدة التي تنتشر عبر التراب الوطني، بهذه المهمة المنتشبة التي تتمثل في التربية، التوعية والثقافة البيئية، ذلك أن التكوين والتحسيس المستديم والترقية ضرورية من أجل تجسيد على أرض الواقع الأهداف الموكلة في ميدان التربية والثقافة البيئية، وفي المجال المغربي، لاحظ مدير مكتب "الصندوق العالمي للطبيعة" (WWF) حجم "النقص في التحسيس في ميدان التربية البيئية في البلدان المغربية"، مشيراً إلى أن هذه النقطة تعتبر "قضية المدرسة، في الوقت الذي يجب أن تحظى فيه مسؤولية الأسرة بالعناية".

وللإشارة، فقد انطلقت التربية البيئية في الولايات المتحدة، منذ سنوات 1970، وفي أوروبا في سنوات 1990، بينما لم يتم الاكتراث بهذه الإشكالية في بلادنا، سوى في سنوات 2000، اعترف هذا الخبير في (WWF) أنه من الواجب إدراج هذه المادة، في البرامج المدرسية والتربوية، وكشف المسؤولون هذه الهيئة الأممية التي ترافق وتدعم المقاربات التي تقحم هذا المفهوم، عند مختلف الشركاء المعنيين عن وجود "إرادة طيبة" عند الدول المغربية لترقية وتطوير ثقافة البيئة، بواسطة نشر النوادي الخضراء clubs "verts" على مستوى مؤسسات التعليم والتكوين.

سادسا. الجزائر في مواجهة المشكلات البيئية (التعليم، التثقيف والسكن)

هل تسمح هذه الخصائص المستخلصة من التعريفات والممارسات السابقة بالتمييز بين الثقافة البيئية المتمحورة حول المجتمع المحلي والمواقع بمقاربات أخرى؟ أولاً، التركيز على المجتمع المحلي يتناقض مع المقاربات العديدة في الثقافة البيئية التي يمكنها أن تكون مستقلة عن المجتمع: على سبيل المثال، البقاء داخل الصف، التعلق أو تبادل المعارف مع تلامذة بلدان أخرى أو الارتباط مع مهن أو منظمات مهنية، دون علاقة وثيقة مع المجتمع المحلي، مثل هذه المقاربات المستقلة عن المجتمع المحلي يمكن أن تكون مهمة بحسب

السياق الذي تتبنى فيه، فيما يخص التركيز على المجتمع المحلي، يوجد أن تشابك مع سكان وسط حياة التلاميذ: يوجد تفتحات متبادلة بين المدرسة والمجتمع، نحن هنا في ضرورة أن "المدرسة يجب أن تفتح على الوسط"، وببساطة، فإن المجتمع المحلي والمدرسة يكتشفان أنهما يتقاسمان موطننا، وسطا تندمجان وتتموقعان فيه.

ثانياً، التركيز على وسط الحياة والمواقع الخاصة ينفصل في البدء من مقاربات أخرى: حسب التخصصات (جغرافيا، إيكولوجيا، على سبيل المثال)، مبحثية (مياه، هواء، حيوانات، تنوع مناخي، طاقة، الخ)، حل مشاكل (مشكلات بيئية وحلولها غيرها: تغير مناخي، استعادة ورسكلة)، تستهدف هذه المقاربة أن تكون داخلية أكثر منها خارجية، دون أجندة خارجية محددة مسبقاً، دون قضية مبحثية أو برنامج خارجي، نكون هنا أكثر الآن بين بعضنا، إن العمل حول مسألة "ماذا يوجد هنا" عند وندال بري (Wendell Berry) يمكن أن يفتح "روح المكان" على مختلف المباحث، يكشف عنها، يسايقها أو يجذرها ويبث فيها الحياة، هذه المباحث التي تتضافر مع تجربة المكان يمكنها أن تتحول إلى مشروعات شخصية ومجتمعية.

ثالثاً، المقاربة بواسطة المكان يمكنها أن تتضمن بالضرورة تركيبة تجريبية أو فينومينولوجية (phénoménologie) لأن مفهوم المكان يستدعي العالم المعاش، الوجود في العالم، لا يجب أن يتشأ المكان، وكما يطرح الباحث الأنثروبولوجي م. جاكسون (Michael Jackson) فكرة تقول بأن الإحساس بالتواجد في مسكنه في العالم هو أقل تجذراً في المكان بوصفه كذلك منه في الأنشطة التي تجري في ذلك المكان"، هذه المقاربة تستدعي ثقافة شكلية خارج أسوار حجرات المدرسة بما تتضمنه من نصيب الأخطار والمتعة.

بالطبع، هناك حدود وصعوبات تصاحب الثقافة البيئية التي تركز على المواقع والمجتمع المحلي، لقد تمت الإشارة إلى صعوبات فعلية أو جسيمة: هيمنة الهرميات أو النخب المحلية، الجماعات التي تتميز بإحساس ضعيف بالانتماء إلى المجموعة المحلية، المجتمعات الخائفة والأوساط المعيشية ذات الخصائص المهنية-البيئية المريبة، بفعل أشكال العنف، التلويت أو غياب التعددية، لفت ل. مارتى (Laurent Marty) الانتباه إلى المواقع والمجتمعات المحلية الكثيبة (Marty.2004)، يمكننا إذن، أن نخشى بدرجة أولى

التطرف المحلي مع روح تحزبية وربما "النزعة القبلية"، لكن، يمكننا أيضا أن نتصور كونية شاملة كشكل من الإمبريالية، القبلية الغربية المركزية أو الاقتصادية، تستهدف فرض كونها الخاص، رؤيتها للعالم وكيانيتها على الآخرين، أليست النزاعات العالمية الكبيرة على أساس رؤية كونية هيمنية من أحد الأطراف الذي يحاول فرض نفسه؟ زيادة على ذلك، يجب الاعتراف بأن الأبعاد القارية للتقنيات-العلوم تخترقنا من جهة إلى أخرى وليست النزعة المحلية المتطرفة هي التي تنتقنا.

وفي سياق إنشاء ثقافة بيئية، يقترح علينا ف. باين (Phillip Payne) تحليلًا نقديًا لاشتداد اجتياح العالم من قبل التكنولوجيات، لنفكر في التغيرات الفجائية في وجودنا في العالم عبر الحواسيب التي تؤثر حياتنا وتتكفل بجزء من تجربتنا منذ أكثر من عشرين سنة وتستدعيننا غالبا بكل افتراضي إلى زيارة "المواقع"، توجد بالطبع التلفزة التي تجعلنا من سكان الكوكب على طريقته منذ أكثر من خمسين سنة، إن الكون التاجر الذي يشكله الرأسمال المعولم يجلبنا إليه على الدوام لكي يتجدد، في المدن العواصم، يغزونا الإشهار بواسطة حضور اللافتات الإشهارية، لا يفتأ رجال الإشهار البحث على أساليب ومواقع جديدة لدعوتنا بغية أن يحدث إغراء الرأسمال البشري" أثره فينا، والجرائد ترغر بالإعلانات، هكذا، بالنسبة للغالبية منا، فإننا جد نتعرض أكثر إلى خطاب سياسي واقتصادي عالمي أكثر من وقائع بيئات حياتنا، إنها حقبة النزعة "الغربية-المركزية" المنتشية مع نزعتها "الاقتصادية" و"سلعيتها" للعالم التي ترحلنا صوب "كوكب متشاكل" (Latouche.2000)، رمزيا وماديا، فإن حياتنا وبيئة حياتنا وثقافتنا تتخللها العولمات السلعية، في هذا السياق، لا يجب أن نهال الحساسية المفرطة للمكان بل نسيان هذا الأخير، يبدو لنا من الواجب إذن، إعادة استكشاف بيئة حياتنا وتعلم من جديد السكن فيه لأننا نسكن دوما في مكان ما، بالنسبة لمعظمنا، فإننا لا نعاني بالتأكيد من الالتزام الفردي أو المجتمعي المفرط في دراسة بيئات حياتنا، في هذا الصدد، فإن التحديات الثقافية والتربوية مهمة جدا، يتعلق الأمر بضرورة موقعة وجودنا في العالم في علاقة مع تلك المواقع التي لا تزال تحملنا ومع تلك المجتمعات المحلية حيث نتواجد، بما يسهم في تكويننا ويدعم هويتنا الشخصية والجماعية.

وبناء على ما تقدم، فإن هذه الأفكار الحديثة حول السعادة والتربية والثقافة التي تعالجها الكتابات الفلسفية، فهي تجمع بين هذه الممارسات بأسس أخرى من أجل السعادة التي يجب

أن تسهم فيها التربية المدرسية، نعيد التذكير، أننا نادرا ما نشرك التربية الرسمية بالسعادة، لكن، الجمع بقوة بين التربية والسعادة يمكنه أن يكون شيئا معينا أكثر من طوباوية ويمكنه بالعكس أن يتجسد في تجربة الطبيعة، الموقع والمجتمع المحلي.

الخاتمة

بالرغم من ما بذلته السلطات الجزائرية في مجال المحافظة وحماية البيئة، إلا أنه يجب القول بأنها غير منتظمة وغير فعالة، وذلك عبر ربط المسألة السكانية بعملية التنمية، وهذا يقتضي بالضرورة السعي نحو تحقيق مجتمع الكفاية والعدل والتضامن الاجتماعي، وخلق البيئة المتوازنة التي تؤمن عدم اتساع الهوة بين مستويات دخل الشرائح الاجتماعية المختلفة. فلم يعد خافيا على أحد أن تطبيق التنمية المستدامة سيبقى سرايا خادعا وحلما صعب المنال ما لم تعتمد الجزائر التي تنشد مثل هذه التنمية مجموعة من الثوابت والمبادئ العامة التي تعد مقياسا دقيقا لمدى ارتقاء المجتمع وتطوره التنموي المستدام ودرجة صلاحه.

أخيرا، إن الحفاظ على البيئة يقوم على أربعة ركائز أساسية يتطلب من السلطات الجزائرية العمل على تطويرها ومتابعتها وهي الركيزة البشرية، المؤسساتية، القانونية والاقتصادية، التي تهدف في مجموعها لتحقيق ما يسمى بالمواطنة الايكولوجية بسلوكات وتصورات جديدة للبيئة.

المراجع والمصادر

- (1) الببلاوي. حازم (1990)، "الدولة الريعية في العالم العربي" في لوتشياني جياكومو، الدولة العربية، روتليدج : لندن ، ص- ص 85-98.
- (2) الشيخ. محمد صالح (2002)، الآثار الاقتصادية والمالية لتلوث البيئة ووسائل الحماية منها، مكتبة وطبعة الإشعاع الفنية، ط1، مصر، ص 29.
- (3) رواني. بوحفص و زرقون. محمد (2006): تنمية الإدارة البيئية من أجل تحقيق التنمية المستدامة والمحافظة على البيئة، الملتقى الوطني حول الإصلاح الإداري والتنمية الاقتصادية، معهد العلوم الاقتصادية، المركز الجامعي خميس مليانة، الجزائر، يومي 04/03 ديسمبر.

- 4) سميث. وبنيامين (2004)، الثروة النفطية وبقاء النظام في العالم النامي 1960-1999، المجلة الأمريكية للعلوم السياسية، المجلد 48 ، العدد 2، (أفريل)، ص-ص 246-232.
- 5) ويلسون. رودني (1989)، استعراض: الدولة الربعية التي كتبها حازم الببلاوي، جياكومو لوتشيانني، نشرة الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط، المجلد 16، العدد2، ص 195.
- 6) Bateson, G. (1979), *La nature et la pensée*, Paris, Ed. Seuil
Blin, J.-F. (1997), *Représentations, pratiques et identités professionnelles*, Paris, Ed. L'Harmattan.
- 7) Baêta Neves Flores, L.-F., (2000), « Sous les tristes tropiques néolibéraux, le concept d'écologie ne fleurit pas », in M. Abélès, L. Charles, H.-P. Jeudy, *L'environnement en perspective*, Paris, Ed. L'Harmattan, pp. 223-236.
- 8) Beck, U., (2003), *La société du risque. Sur la voie d'une autre modernité*, Paris, Ed. Aubier, 2e ed.
- 9) Blin, J.F. (1997), *Représentations, pratiques et identité professionnelle*, Paris, Ed. L'harmattan.
- 10) Boiral, O., (2004), « Environnement et économie: une relation équivoque », in *Vertigo*, 5 (2), pp. 1-8.
- 11) Camille ROUSSET (1879), *La conquête d'Alger*, Paris, Éd. Plon et Cie, pp. 185-186
- 12) Campagnes d'Afrique (1835-1848), *Lettre du Chef de Bataillon Canrobert du 13e Léger*. Bibliothèque de l'Université catholique de l'ouest, L'exposition " La Moricière " organisée à l'occasion de la rentrée solennelle de l'année universitaire 1987-1988, 21-30 novembre 1987, Presse de l'U.C.O., 1988, 16 p.
- 13) Camille ROUSSET (1889), *La conquête de l'Algérie*, (1841-1857), Paris, Ed. Plon et Cie, pp. 24-25.
- 14) Descola, P., (2005), *Par-delà nature et culture*, Paris, Ed. Gallimard.
- 15) Franck, D.-J., (1997), *Science, nature and the globalization of the environment, 1870-1990*, *Social Forces*, 76, 2, pp. 409-435.
- 16) Haas, V. & D. Jodelet, (1999), « Pensée et mémoire sociale », in J.-P. Pétard, *Psychologie sociale*, Paris, Ed. Bréal, pp. 111-140.
- 17) Habermas, J., (1987), *Théorie de l'agir communicationne*, Paris, Ed. Fayard.
- 18) Jodelet, D., (2006), *Culture et pratiques de santé*, *Nouvelle Revue de Psychologie*, n° 1, pp. 219-239.
- 19) Latouche, S. (2000), *La planète uniforme*, Castelnau-le-Lez: Climats, Collection « Sisyphe ».

- 20) Lenoble, R., (1969), Histoire de l'idée de nature, Paris, Ed. Albin Michel.
- 21) M. Jollivet et A. Pavé (1993), "L'environnement: un champ de recherche en formation", in Natures-Sciences-Sociétés, 1, pp. 6-20
- 22) Marty, L. (2004), Esprit des territoires es-tu là ? Lieux moroses et lieux vivant, Communication présentée au Colloque Environnements, cultures et développements, 7 et 8 novembre 2002, Ifrée-ORE, Niort, France.
- 23) Moscovici, S., (1968), Essai sur l'histoire humaine de la nature, Paris, Ed. Flammarion.
- 24) SAUVÉ L., (1991), Éléments d'une théorie du design pédagogique en éducation relative à l'environnement. Thèse de doctorat, Université du Québec. Montréal. p115.
- 25) Theys J., (1993), « Le climat en négociation », In l'Etat de l'environnement, Paris, Ed. La découverte, pp. 340-347.